

ظهور الدولة العثمانية في الدراسات التاريخية المعاصرة* (جمال كفادار)

ترجمة عبد اللطيف الحارس

[إذا لم يكن لديك ما تقوله لنا سوى أن بربرياً خلف
آخر على ضفاف سيحون وجيحون، فما الذي يعنينا
من كل ما تقول؟]

فولتير، مقالة في التاريخ

مع بداية القرن الخامس عشر، ظهرت مؤلفات تاريخية عديدة -
لعثمانيين وغيرهم - تبرز سلسلة من الحوادث المرتبطة بظهور وتوسع السلطات
العثمانية. ولكن أياً من هذه المؤلفات، لن يتمكن من اجتياز اختبار فولتير
بنجاح؛ لأن هذه المؤلفات - من وجهة النظر التاريخية الحديثة - لا تحتوي
على أي تفسير أو تحليل لما تذكره من أسباب وعوامل، وإنما هي مجرد
سرد لأحداث تتالت، حول دول وسلالات تعاقبت. قد يكون من الطبيعي
لقارئ دي مازيل Dumézil أن يكون مستعداً لتعقب تفسيرات ضمنية في هذه
المصادر - مهما كانت الصورة الشكلية أو اللاتحليلية لها - وذلك من خلال

فحصٍ لاختيار الأحداث وترتيبها⁽¹⁾؛ ولكنّ هذا لن يغير شيئاً من واقع أنّ «قيام الدولة العثمانية» لم يُعالج بشكل يثير التساؤل، وأن إظهار تفسيرات تحليلية لم يُفكر بها إلا بعدما اكتمل تأثير الأفكار الوضعية والتاريخية على الدراسات العثمانية مع بداية هذا القرن.

مالت الكتابات التاريخية للعثمانيين - منذ بواكيرها المكتوبة في القرن الخامس عشر وحتى حقبة متأخرة من تاريخ الإمبراطورية - إلى البدء مع سلالة عثمان وحلمه في مواجهة الاضطرابات السياسية والمادية التي سببتها الجانكيزخانية Chingisids في غرب آسيا. فمع تدفق الأتراك إلى آسيا الصغرى بفعل الهجمات المغولية، ومع انحلال السلطة السلجوقية، يظهر محارب شاب، يعضده حلم واعد، يبشره بأن الله قد اختاره وخلفاءه للحكم. هناك روايات عديدة لهذه الأسطورة، وبعضها ينسب هذا الحلم إلى أرطغرل والد عثمان، إلا أن الجميع متفقون على أن هذه الروايات قد سبقت سعي عثمان إلى السلطة السياسية، موضحين أن هذا السعي كان مشفوعاً بدعم الهي. ويرى المؤرخون أن التوفيق الإلهي والنسب قد لعبا وبوضوح دوراً حاسماً في قيام السلطة العثمانية، زد على ذلك ما ترافق معهما من خصائص شخصية للحكام، نذكر منها الإيمان الصادق، والاستقامة، والشجاعة، وحسن القيادة.

ثم أدخلت إلى هذا النموذج تفسيرات إضافية اعتمدت على اهتمامات الرواية. فالأنساب يمكن أن يعاد تشكيلها أو تزيينها من خلال تذكّر بعض الأسلاف المنسيين؛ والبركة الإلهية يمكن أن تطال شخصية دينية كان لها دور الوسيط في تحديد هذه البركة والتحقق من صحتها.

(1) راجع كمثال:

Georges Dumézil, *The Destiny of a King*, trans, A. Hiltbeitel (Chicago, 1973).

ليس مطلوباً من العمل الأدبي أن يصنع نظرية: إن عمل السامع أو القارئ هو رؤية الخطة المنجزة التي رتبت الأحداث بالطريقة المعروضة في هذا العمل وبالناتج التي تم التوصل إليها. فالخطة إذًا هي التي تبرر هذه الأحداث والناتج وتعطيها معنى»، ص 115.

فإذا أردت أن تحظى وسلالتك بمكانة مميزة، لمساهمتك الفعلية أو المتخيلة للسلالة العثمانية، فما عليك إلا أن تُضمّن تأريخك فصلاً أو فصلين، توضّح فيهما طبيعة هذه المساهمة. ففي سيرة حاجي بكتاش الزعيم الروحي لنظام الدراويش البكتاشية مثلاً: «إنّ السلطان قدّر إلهي، ولقد تحول التوفيق الإلهي من البيت السلجوقي إلى بيت أرطغرل⁽¹⁾» إلا أن هذا التحول لم يتم من خلال تدخل إلهي مباشر؛ فالأخبار قد بُشّر بها من قبل الحاج بكتاش، الذي كان بالنظر لقربه من الله قادراً على التوصل لمعرفة مثل هذه الأسرار الإلهية، كما التوسط في التحول الفعلي للزعامة - وهو الأمر الذي يجعل من بركته عاملاً آخر في قيام الدولة العثمانية.

في المصادر الأوروبية أيضاً، نالت مسألة المنشأ حيزاً واسعاً، غير أن التركيز هنا لم يكن على نسب عثمان، وإنما على الأصول الإثنية أو العرقية للعثمانيين: هل هم حقاً طرواديون Trojans، أم هم سكيثيون Scythians وفي الحقيقة، ما كان الأوروبيون يحتاجون إيضاحه لجمهورهم لم يكن ظهور العثمانيين بخاصة، وإنما حضور «الخطر التركي». فسواء أكان العثمانيون طرواديين يثأرون لمقتل هكتور، أم سكيثيين قد خرجوا للتدمير، أم شعوباً من آسيا الداخلية يتصل نسبها بالهون Huns كما اكتُشف فيما بعد؛ فإن مهاراتهم العسكرية العظيمة كخاصية عرقية أمرٌ كان يجب التنبيه إليه، كما كان يجب التنبيه إلى أنهم بانتمائهم للإسلام، قد أصبحوا يتسلحون بـ «ديانة محاربة». كما أن الإرادة الإلهية - وتأتي هنا بصورة عقاب للمسيحيين على خطاياهم -

(1) وعلى الرغم من أن الكتابة التاريخية لهذا النص الهام جداً ما زالت غير واضحة، إلا أن الجزء المتعلق بعثمان هو مشترك - رغم بعض الاختلافات التي لا تؤثر على هذه المناقشة - سواء بنصه الشعري أو الثري، اللذين كتبوا في القرن الخامس عشر. من أجل النص الشعري راجع:

Manzûm Hacı Bektas Velî Velâ yetnâmesi (ILK Velayetnâme, ed. Berdi Noyan (Aydin, 1986), 261-80 of text.

من أجل النص الثري راجع:

Vilâyet-nâme: Manâkib-i Hünkâr Hacı Bektâs-i Velî, ed. and trans. into modern Turkish by Abdûlbaki Gölpınarlı (Istanbul, 1958), 71-75.

أمرٌ لا يجب إهماله في هذا المجال.

إزاء هذه الخلفية، يصبح من اليسير علينا أن نتفهم سبب الإعجاب الشديد لصموئيل جونسون بـ ريتشارد نولز (1550 - 1610)؛ والذي وصل به إلى حد تسميته بـ «أول المؤرخين»، رغم أنه أضاف مسرعاً أن المؤرخ «لم يكن سعيداً... باختياره لموضوعه».

يُرجع نولز «Knolles» (قيام الدولة، والمقدرة العسكرية العثمانية) إلى: تلك الوحدة المميزة والتوافق السائد بين العثمانيين، إن في نمط ديانتهم، أو في المسائل المتعلقة بدولتهم، (وخاصة في المؤسسات المستخدمة في توسيع إمبراطوريتهم)، ولذلك أطلقوا على أنفسهم اسم المسلمين، والذي يعني رجالاً بإرادة واحدة، مسالمين فيما بينهم. وليس هناك ما يثير الدهشة - بعد ذلك - فقد نموا أقوىاء بذاتهم، مثيرين للرعب في قلوب الآخرين. أضف إلى ذلك شجاعتهم...، اقتصادهم واعتدالهم في مأكلاتهم وأساليب حياتهم الأخرى، مراعاتهم الدقيقة لنظامهم العسكري القديم، طاعتهم العمياء وبكل سرور لأمرائهم وسلطينهم...، ويمكن أن نضيف إلى كل ذلك مصدري القوة لكل حكومة اتحادية جيدة: الثواب المُقدم للصالحين، والعقاب الذي يهدد به المذنبون، وحيث المكافأة قائمة للفضيلة والشجاعة، والطريق مفتوحة لكل إنسان عادي، للتطلع نحو أعظم المقامات وأفضل المراكز؛ في الدولة وفي ساحات القتال⁽¹⁾.

ومهما كان من قيمة لتفسيرات نولز، فهي لا تركز على الأطوار الأولى

(1) Richard Knolles, The General Historie of the Turkes (London, 1610).

راجع: «مقدمة المؤلف للقارئ المسيحي». إ.ف. غييون، الذي كان له موقف غير إيجابي من نولز فهو ينقل عن صموئيل جونسون: «إلا أنني أشك بأن كل هذه الكتابة الثرية المتحيزة للكتاب اللاتين، ألف وثلاثمئة صفحة من الخطابات والمعارك، يمكن أن تعلّم أو تُدهش عسراً متتوراً، والتي تتطلب من المؤرخ، على الأقل، مسحة من الفلسفة والنقد».

The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 vols., ed. J.B. Bury (London, 1914), 7:25-26 n. 66.

للتاريخ العثماني، أو على المراحل التكوينية للدولة. وينطبق هذا أيضاً على المقالات النظرية لدراسة الأنظمة السياسية المقارنة من قبل مؤلفين عديدين من مؤلفي عصر النهضة الأوروبيين، كميكيافيللي وجون بودن «Jean Bodin»، وأعمال هؤلاء لا بد أن تكون قد قُرئت من قبل بعض المؤلفين الأوروبيين للأعمال التاريخية والأدبية الوفيرة حول العثمانيين. ولم يبق أحد غير نولز بترجمة كتاب بودن حول «التشريعات أو الحكومة السياسية للإمبراطوريات» De la legislation, ou du gouvernement politique des empires، إلى الإنكليزية قبل كتابة تاريخه للعثمانيين⁽¹⁾. ومثل نولز، فإن كاتبَي السياسة المقارنة، حلّلوا قوة النظام العثماني كما أصبحت فيما بعد مرحلة البناء الإمبراطوري، ولكن أحداً منهم لم يهتم بعملية البناء نفسها. كما أنه لم يكن هناك أي شيء مما يختص بالعثمانيين دون سواهم في رواية نولز؛ فكل «العوامل» التي ذكرها يمكن أن تنسب إلى كل دولة تركية إسلامية تنافس معها العثمانيون. لقد فسر نولز نجاحات لم تكن للعثمانيين بشكل خاص وإنما «للأتراك» بعامة - وهي تسمية مرادفة، «للعثمانيين» وأحياناً أخرى «للمسلمين» من قبل أوروبيي ذلك العصر. وإضافة إلى هذا الموقف التحليلي غير الناضج، يغرق نولز في مئات الصفحات من «التاريخ الحديث» التقليدي.

وهذا الأسلوب صحيح أيضاً بالنسبة لأكثر روايات التاريخ العثماني المكتوب بروزاً وشمولية: «تاريخ السلاطين العثمانيين». «Die Geschichte des osmanischen Reiches» لمؤلفه المؤرخ جوزيف فون هامر - بورغشتال (1774 - 1856) Joseph von Hammer-Purgstall - من فيينا، والذي يمثل قمة هذا التقليد⁽²⁾. وينطبق هذا الأسلوب أيضاً، على الرغم من وجود بعض اللمحات التاريخية الجديدة هنا، على نقولا أيورغا (1871 - 1940) Nicolae Iorga

(1) Knolles entitled his English translation, The Six Books of a Commonweale. (1)

الأصل الفرنسي صدر في سنة 1576، والترجمة الإنكليزية في عام 1603.

(2) Joseph von Hammer-Purgstall, Die Geschichte des osmanischen Reiches, 10 vols. (Pest, 1827-35).

1940، (روماني - عصور وسطى)، والذي يُعتبر تاريخه للإمبراطورية العثمانية، عودةً إلى طريقة الأسلاف في كتابة الروايات العظيمة التي تركز على الأحداث العسكرية - السياسية، من ناحية، ونتاجاً لتيار التاريخ الثقافي الجديد⁽¹⁾ «Kultur geschichte» من ناحية أخرى. وفي النهاية يمكن القول إن أيورغا قد دُفع لهذه المهمة من قبل معلمه الخاص، لامبرخت «Lamprecht»، المؤرخ الألماني المناقض لرائكه Ranke والذي قامت طريقته في البحث التاريخي، ليس على «التاريخ كما حدث بالفعل»، ولكن «كيف أصبح على ما هو عليه في الحقيقة». ولم يكن إيورغا متحمساً فقط لإبراز أهمية الفترة السلجوقية كخلفية تأسيسية، ولكنه اختار أيضاً أن يضمّن تاريخه فصلاً غير سردي يركز «على الحياة القروية العسكرية للأتراك»، وتجاوب الإدارة العثمانية مع مزارعي البلقان وذلك بتأمين الحماية لهم من تعسف أسيادهم.

ولم تظهر أهمية نشوء الدولة العثمانية كإشكال خاصة في تصور المؤرخين إلا بعد الحرب العالمية الأولى عندما أصبح زوال الدولة العثمانية أمراً وشيكاً. إذ كيف أمكن لهذه الدولة، التي تظهر الآن ضعيفةً ومتداعية، قديمة الطراز، شرقية بالرغم من العديد من الإصلاحات الغربية، أن تكون في الماضي على ذاك القدر الهائل من النجاح؟ وهذا النجاح كما أدرك الكثيرون، لم يكن فقط على مستوى التوسع، والذي يمكن وبسهولة تفسيره بالعنف والقوة العسكرية. لقد حكمت هذه الدولة مرة، وبدون اضطرابات هامة، شعوباً كثيرة، متعددة الديانات، واللغات والتقاليد، بشكل يثير الدهشة⁽²⁾.

(1) Nicolae Iorga, Geschichte des osmanischen Reiches nach den Quellen dargestellt, 5 vols. (Gotha, 1908-13). An uncritical but accurate overview is given by M.M. Alexandrescu-Dersca [Bulgaru] in two versions: «N. Iorga, historien de l'empire ottoman», Balcania 6 (1943): 101-22 and Nicolae Iorga-A Romanian Historian of the Ottoman Empire (Bucharest, 1972).

(2) ولبدء فصله التحليلي (Geschichte, I: 456) كتب Iorga، كمثال: إنه لكي نفهم تطورات الدولة العثمانية، وعلل ضعف المقاومة المسيحية، وكثرة الأمراء، واستعداد الجماعات =

كيف يمكن لبعض «البرابرة»، والذين كانوا رعاة عند مستهل بناء إمبراطوريتهم، خلق هذا الكيان المعقد حتى ولو انتهى به الأمر ليكون استبدادياً؟ إن الوطنيين العثمانيين أو القوميين الأتراك يرغبون في أن يبرهنوا، وبتعابير مختلفة بالطبع، أن هذا لم يكن مفاجئاً، لقد كانوا يعلمون ما لهذه المسألة من أهمية خاصة تتعلق بالاحترام الذاتي للفرد كما بالوجود الفعلي للأمة، خصوصاً في ظل النظام العالمي الجديد الذي جزأ الإمبراطوريات غير الأوروبية إلى دول قومية؛ كانت من حيث المبدأ تتشكل من شعوب قادرة على أن تثبت من خلال تجربتها التاريخية بأنها ناضجة بما فيه الكفاية لحكم نفسها بنفسها.

هـ.أ. غيبون (1880-1934) H.A-Gibbons، أميركي درّس في جامعة روبرت في استانبول خلال السنوات العشر الأولى من القرن العشرين، وكان أول من طرح في دراسة خاصة مسألة جذور الدولة العثمانية⁽¹⁾. وقد أوضح أن المصادر العثمانية الأولى والتي هي أساس كل التكهّنات حول هذا الموضوع حتى الآن - تعود إلى القرن الخامس عشر. وهي مرفوضة لأنها ليست إلا اختلاقات متأخرة. وفي الحقيقة، كان تقييمه للكتابات التاريخية العثمانية لا يختلف عن تقييمات بوسبك «Busbecq»، سفير آل هابسبورغ لدى سليمان القانوني (1520 - 1566). فقد ردّد غيبون ما قاله دبلوماسي القرن السادس عشر، الذي رأى أن «الترك ليست لديهم أدنى فكرة عن الحقبات التاريخية أو التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها حسب تسلسلها الزمني، وهم يصنعون خليطاً رائعاً من مختلف الحقبات في التاريخ». كتب غيبون يقول: «يجب أن نرفض كليةً مدارك المؤرخين العثمانيين. إذ لم يستفّق منهم أحد بعد، ليحاول فصل المقاييس الدقيقة للحقيقة عن الخرافات الكثيرة التي

= المسيحية للخضوع للعثمانيين، ونُدرة أحداث التمرد والمقاومة المسلّحة للفاتحين. وخلال كل حملات الفرنجة والمجرين لماذا لم يستطع هؤلاء أن يجمعوا حولهم مجموعات كبيرة من الفلاحين ضد العثمانيين - من أجل ذلك كلّه يكون علينا أن نعرف خصائص هؤلاء العثمانيين، والأبعاد الحقيقية لحياتهم التاريخية».

تحجب الإنسان الحقيقي المؤسس للسلالة العثمانية»⁽¹⁾. وبذلك توصل إلى النتيجة التي ترى أنه «في غياب الوقائع المعاصرة والأعمال المتوافقة، يجب أن نكون حكمنا على عثمان بالكامل بناءً على ما أنجزه»⁽²⁾. ومما يثير العجب أن غيبون، بعد هذا التقييم - الإدانة، لم يتوقف فقط عند أجزاء من الأعمال التاريخية العثمانية، وإنما اختار أيضاً أن يعتمد وبشكل خاص على عنصر مربب منها في مناظرته الأكثر محورية.

واحدة من تأكيدات الجديدة والجذرية كانت أن عثمان وتابعيه كانوا أتراكاً وثنيين يعيشون حياة بدوية رعوية على الحدود البيزنطية، ويمارسون نشاطات نهب وسلب ناجحة بسبب ضعف الدفاعات البيزنطية في هذه المنطقة. ثم دخلوا الإسلام في مرحلة معينة من عمل عثمان. وكما توضح قصة الحلم بالنسبة لغيبون، فإن هؤلاء البدو قد أخذوا بروحية الداخل حديثاً في دين وأجبروا العديد من جيرانهم المسيحيين على التحول أيضاً إلى الإسلام. اعتقد غيبون أن قصة حلم عثمان الإلهي ربما كانت أسطورة إلا أنها كانت تهدف إلى التعبير عن فترة معينة في الحياة الفعلية لهذا الزعيم الشاب، وبالتحديد، فترة اعتناقه لدين جديد، واتباعه لسيرة سياسية - عسكرية جديدة باسم هذا الدين.

ويأخذ غيبون بعضاً من الحقائق من هذه «الخرافات الكثيرة» التي اعتبر أنها تشكل التاريخ العثماني، فيرى أن «الأربعمئة خيمة» التي تشكل قبيلة عثمان لا بد أن يكون قد انضم إليها العديد من الداخلين الجدد في الإسلام مما أدى إلى ازدياد عدد هذه الجماعة إلى «عشرة أضعاف». وهكذا خلقت سلالة جديدة (العثملي)؛ التي تشكل مزيجاً من الأتراك الوثنيين سابقاً واليونان المسيحيين سابقاً. وترافق توسع سيطرة العثملي مع قدوم بعض العناصر الجديدة من الشرق، ولكن مع المزيد والمزيد من «الارتدادات والتحويلات من

The Turkish Letters of Ogier Ghislein de Busbecq, trans. E. S. Forster (Oxford, 1927), (1)
55. Gibbons, Foundation, 50.

Gibbons, Foundation, 51. (2)

اليونانيين البيزنطيين؛ ولذا، فإن القوة الخلاقة للإمبراطورية العثمانية يجب أن لا تعزى للشعب الآسيوي وإنما للعناصر الأوروبية⁽¹⁾. وكان هذا في وقت لم يشعر المؤرخ فيه بالحاجة للاعتذار لكتابه ملاحظات كالتالي: «إن الحكومة والطبقات الحاكمة في الإمبراطورية العثمانية كانت سيئة بشكل سلبي وليس بشكل إيجابي. ليس هناك من موروث سيء للعثماني، ولكنه جامد ولذلك فشل في الوصول إلى المقاييس التي أفرزها التطور الحضاري. إنه فاقد للمثاليات»⁽²⁾. غير مبالٍ ومتحسر كما يتراءى لمن يقرأ هذه التعليقات اليوم، وعندما تمت السيطرة الثقافية ومورست بطرق أكثر رقة، فإن الحساسية المعدومة عند غييون تجاه «السكان الأصليين» سمحت له بأن يكون حراً من الحذر العُصابي في تقديمه لبعض الاقتراحات الجريئة. ومهما كانت نقاط الضعف واضحة في مناقشات غييون المحددة، وعلى الرغم من تضخيمه وعقلنته لهذا الموضوع، فإنه لم يكن بعيداً عن الخط العام في إبرازه لظهور جماعة سياسية جديدة، تكونت من شعوب مختلفة ذات خلفيات إثنية ودينية متعددة. كما أن دراسته تلقي بعض الأضواء على الجذور المتواضعة المحتملة للعثمانيين الأوائل ولطبيعة مؤسساتهم، فتجعل من عثمان «رجلاً عصامياً». وحتى أعنف منتقدي غييون يوافقونه الرأي على أن التوسع العثماني في البلقان يجب أن لا ينظر إليه كنتيجة لسلسلة من الغارات الهادفة للحصول على الغنائم وإنما «كجزء من خطة استيطانية» تزامنت مع هذه الغارات.

وبعد مرور أكثر من عقدين على صدور كتاب غييون، كان تأسيس الدولة العثمانية وهوية مؤسسيها ما يزالون من الموضوعات الشيقة الرائجة. لقد تمتعت نظرية غييون باعتراف واسع خارج عالم المستشرقين، خاصة وأنه

(1) وقد أوضح Todorov تسلسل هذه الفكرة، من Hammer مروراً بـ Iorga إلى Grousset، على

الرغم من أن هذه الفكرة لم توضح بهذه القوة من قبل. راجع: Balkan City, 46

(2) ولم يكن Gibbons, Foundation, 75. غييون ليناً في موقفه من «انحلال» البيزنطيين في فترة

ما قبل سقوط إمبراطوريتهم. فقد تابع في نفس الصفحة قوله: «ولكن عندما تقارن بين العثمانيين الأوائل والبيزنطيين... فيجب أن نعلن أن العثمانيين هم الأقوى. لقد كانوا أغراً، متحمسين، حيويين وغير فاسدين، وكانت عندهم مثاليات، وكان عندهم هدف».

بالإمكان التوفيق بينها وبين فرضيات بعض دارسي البيزنطيات الذين رأوا في ذلك الوقت أنّ الازدهار الأولي للمؤسسات الإدارية العثمانية وممارساتها يعود ليس للتراث الإسلامي - التركي، وإنما للتراث البيزنطي. وقد عبر شارلز ديل Charles Diehl، (بيزنطي - فرنسي)، عن ذلك بقوله، «الأترك... هؤلاء المقاتلون القساة لم يكونوا إداريين ولا حقوقيين، ولم يفهموا سوى القليل من العلوم السياسية. ونتيجة لذلك فقد أقاموا معظم مؤسسات دولتهم وأكثر تنظيمااتهم الإدارية على غرار ما وجدوه في القسطنطينية»⁽¹⁾. أما إيورغا، فبينما يبرز الصعود التاريخي الطويل للأترك كخلفية للعثمانيين، يؤكد أن العثمانيين الفاتحين «بالرغم عن أنفسهم»، اندمجوا بشكل كلي تقريباً في الحياة البيزنطية - ما عدا ديانتهم. والإمبراطورية التي شرعوا بنائها حافظت على هذا العنصر، كما عبر عنه إيورغا في جملة الموفقة، «بيزنطية بعد بيزنطية»⁽²⁾ «Byzance» après Byzance. وبالرغم من ذلك، فإن معظم الباحثين في التاريخ العثماني وتاريخ الشرق كانوا من متقدي غييون. وتبقى هناك بعض الحالات الهامة مثل بابنجر Babinger وغروسيه Grousset اللذين مالا إلى قبول فكرة أن عثمان قد تحول إلى الإسلام في مرحلة متقدمة من زعامته. إلا أن هذه الحالات ليست سوى استثناءات. غيز Giese، كمثال، انتقد نظريات غييون وطريقة استخدامه للحقائق، وخاصةً بناء نظرية حول أسطورة الحلم، واقترح دافعاً جديداً للفتوحات العثمانية: علاقات عثمان مع، أو دعمه من قبل، الآخي «Ahi». هذه (الأخويات) كانت تمثل الشكل الأناضولي لمؤسسات الفتوة الإسلامية الأولى، والتي تضمنت أوساطاً حرفيةً وتجارية مدنية تتماشى مع أنماط سلوك

C. Diehl, Byzantium: Greatness and Decline, trans. N. Walford (New Brunswick, N.J., (1) 1957), 290. النسخة الفرنسية الأصلية نشرت سنة 1926.

N. Iorga, Byzance après Byzance: Continuation de l'«Histoire de la vie byzantine» (2) (Bucharest, 1935). Also see his Histoire de la vie byzantine (Bucharest, 1934), 3: 159-60.

وكل هذه مرتبط بالطبع بالادعاء بأن العثمانيين لم تكن عندهم «أساليب الحياة» اللازمة في اللغة المستخدمة من قبل إيورغا. لمعرفة المفاتيح الفكرية لفهمه التاريخي لإنشاء الإمبراطورية راجع: idem, Geschichte des osmanischen Reiches (Gotha, 1908), I: 264.

شبه صوفية وشبه فروسية ونقابية⁽¹⁾. وقد ذهب كرامرز Kramers إلى أبعد من ذلك فاعتبر أن عثمان كان واحداً من قياديي فتيان الآخي أو الإخوان الآخي «Ahi» في قرية بافلاكونيا «Paphlagonia» التابعة لمقاطعة عثمانجك «Osmancik» حيث يُفترض أنه اتخذ لقبه⁽²⁾. والعديد من المستشرقين البارزين من أمثال هوتسما Houtsma، هيورت Huart، ماركيورت Marquart، وماسينيون Massignon، وموردتمان Mordtmann كانوا متحمسين لإعطاء رأي في هذه المواضيع المتعلقة بهوية عثمان الإثنية والدينية في هذه السنوات. والهوية - مزيج من التصنيفات الإثنية، والقومية، والعرقية، والدينية - لها قيمة تفسيرية أساسية في الفهم التاريخي، وخاصة في تحديد المطاف الصحيح للأفراد والأمم في التطور الدقيق للحضارة. ولا نحتاج هنا إلى إبراز الاختلافات الدقيقة للمجادلات والتوقعات المعتمدة من قبل هؤلاء الباحثين بشكل تفصيلي، إلا أننا نلاحظ وجود افتراض بارز مشترك يميز مواقفهم ويجعلهم يختلفون عن غيبون؛ فهم جميعاً يميلون، بطريقة أو بأخرى، إلى التركيز على الطبيعة «الشرقية» للعثمانيين ويقبلون الهوية الأساسية التركية - الإسلامية لمؤسسي الدولة.

لاحقاً، ظهرت محاولات للتأليف بين هذه الآراء من قبل لانجر «Langer» وبلاك «Blake»، اللذين أدخلوا روحية تاريخية جديدة في النقاش وذلك بإدخالهما مواد سوسيولوجية ومادية، عنصر الجغرافيا، تغير أنماط التجارة، وكذلك مؤسسات اجتماعية ذات أنظمة دينية أو نقابات حرفية. وعلى الرغم من عدم قدرة هذين المؤلفين على استخدام المصادر الأولية بلغات الشرق الأوسط، فقد سبقا بالفعل إلى عرض الكثير من النقاط والرؤى، التي سرعان ما أخذت من قبل اثنين من أهم الاختصاصيين البارزين في هذا الحقل: كوبرولو وفيتك «Witteck». وعلى الرغم من اعترافهما بأهمية التحول

(1) Friedrich Giese, «Das Problem der Entstehung des osmanischen Reiches», Zeitschrift für Semitistik und verwandte Gebiete 2 (1924): 246-71.

J.H. Kramers, «Wer war Osman?» Acta Orientalia 6 (1928): 242-54.

(2)

من النصرانية إلى الإسلام، إلا أنهما كانا حذرين بما يكفي لعدم استخلاص أي تصورات ديموغرافية مميزة من كل هذا. كما أنهما لم يقبلا فكرة أن عثمان كان وثنياً بناءً على حقيقة مهلهلة، إذ إنهما كانا مقتنعين بأن «الديانة قد لعبت دوراً، وربما هاماً، في قصة التوسع العثماني». وشعر الباحثان أن «عشيرة الفاتحين العثمانيين الأوائل»، يمكن تفسيرها من خلال حضور الدراويش المحيطين بهم. وأبرز دور النمو التجاري وتكاثر منظمات الآخي كذلك، وبذلك توصلنا إلى نتيجة أن «السلطين الأوائل كان لديهم ما هو أكثر من جماعات من البدو للاعتماد عليهم»⁽¹⁾.

الاندماج بين كوبرولو - وفيتك

إن تطوير هذه النقطة الأخيرة، والانتقادات المباشرة والتفصيلية لوجهات نظر غيبون، كان عليها أن تنتظر حتى عام 1934، عندما تمكن محمد فؤاد كوبرولو (1890-1966) Mehmet Fuat Köprülü، وهو بحاث تركي تناولت مهنته الفكرية الفترات العثمانية المتأخرة، وأوائل فترات الجمهورية، انحلال الإمبراطورية وبناء الأمة، من تقديم سلسلة من المحاضرات ألقاها في جامعة السوربون «Sorbonne»، والتي لم تلبث أن نشرت تحت عنوان «أصول التاريخ العثماني»⁽²⁾، «Les Origines de l'empire Ottoman». وكانت في مجملها أكثر من رد على نظريات غيبون. فقد احتوى الكتاب بحثاً مفصلاً في المنهجية؛ اعتبر فيه كوبرولو أن أسس الدولة العثمانية لا يمكن دراستها

(1) William L. Langer and Robert P. Blake, «The Rise of the Ottoman Turks and Its Historical Background», American Historical Review 37 (1932): 468-505; the citations are from pp. 497 and 504.

(2) Köprülü, Les origines de l'empire ottoman.

نسخة تركية مع بعض التغييرات الطفيفة، ومقدمة جديدة للمؤلف نشرت سنة 1959: Osmanli Imparatorlugunun Kurulusu (Ankara).

ترجمة إنكليزية محققة لهذه النسخة ظهرت بعنوان:

The Origins of the Ottoman Empire, trans. and ed. Gary Leiser (Albany, 1992).

كظاهرة بثينية «Bithynian» منعزلة، وأنه ينبغي على المؤرخين التركيز ليس على حوادث عسكرية - سياسية منفصلة وإنما على البنى الاجتماعية، والتقاليد الثقافية، والأنظمة المؤسسية للأتراك الأناضوليين بشكل عام، ولأولئك الذين عاشوا على التخوم في أواخر القرن الثالث عشر بشكل خاص. والنتيجة الأولية التي توصل إليها بعد تطبيق منهجيته على مصادر واسعة المدى كانت أن الدينامية الثقافية والمادية لمجتمع الأتراك الأناضوليين كانت قد تطورت بشكل كاف لرعاية نمو دولة مثل الدولة العثمانية، وأن الدفع الديموغرافي نحو غرب الأناضول في الجزء الأخير من القرن الثالث عشر قد حرّك هذه الديناميات. وعلى الرغم من أن قوى عديدة قد تنافست للسيطرة على هذه المجموعات، هنا فقط وفي الصفحات الأخيرة من كتابه، ركّز كوبرولو انتباهه على العثمانيين بشكل خاص - فإن إمارة عثمان كانت مفضلة بالنتيجة - أولاً، لموقعها الاستراتيجي ثم لعوامل عديدة مختلفة. وباختصار فإن الدولة العثمانية كانت ذروة تفاعل بعض الديناميات، والمهارات، والمبادئ التنظيمية التي ربما استوردت أو تطورت في المجتمع التركي الأناضولي خلال قرنين من الزمان. وحدث أن كان عثمان في المكان المناسب، في الوقت المناسب.

وفي نفس الوقت، كان بول فيتك (1894-1978) «Paul Wittek»، الذي كان بالنسبة للدولة العثمانية كمبعوثٍ لحليفها النمسا خلال الحرب العالمية الأولى ثم تحول نحو مهنة البحث، كان يعمل على نفس الفترة التي عمل عليها كوبرولو، وطرح أسئلةً مشابهةً لأسئلة كوبرولو. ونشر بعض ما توصل إليه سنة 1934 في مقالة حول ظهور وأعمال إمارة أخرى، إمارة منتشا⁽¹⁾ «Mentesche». ومباشرة بعد كوبرولو نشر فيتك أفكاره الخاصة عن ظهور الدولة العثمانية في سلسلة من المحاضرات ألقى في جامعة لندن سنة 1937 ثم نشرت سنة 1938⁽²⁾. كان هناك اختلافات هامة بين وجهتي نظر هذين

(1) Paul Wittek, Das Fürstentum Mentesche (Istanbul, 1934). A Turkish translation was made by a student of Köprülü: Mentese Beyligi, trans. O. S. Gökyay (Ankara, 1944).

(2) Paul Wittek, The Rise of the Ottoman Empire (London, 1938).

(2)

الباحثين؛ وفي الحقيقة كان فيتك منتقداً لكوبرولو في جزء من عمله، كما سنرى لاحقاً. إلا أنهما توافقا في نقطة أساسية: قيام الدولة العثمانية ينبغي أن يدرس بالمقابلة مع خلفية قرون من العمليات العسكرية، والتحول الثقافي، والتلاقح الثقافي، واستيطان المسلمين والأتراك في أناضول العصور الوسطى.

لم ير كوبرولو وفيتك دائماً نفس الأشياء في الخلفية التركية الأناضولية. إلا أنهما توافقا في نقطة أساسية أخرى: يجب أن يميز بين ساكني المناطق الخلفية وساكني التخوم بالنسبة لنظامهم الاجتماعي وخصائصهم الثقافية. والباحثان استخلصا أيضاً بشكل أو بآخر من هذه الطبيعة الثنائية؛ ما مؤداه أن سكان المناطق الخلفية التي تتكون في مناطق نفوذ لأسر حاكمة فارسية، ومنتجين مستقرين يفضلون جوهرياً علاقات سلمية وتعايش مع البيزنطيين أو على الأقل لا يرغبون في أن يكونوا في حالة حروب مستمرة معهم، بينما الزاحفون في مناطق التخوم من البدو، والمحاربين، والمغامرين، وال دراويش المدفوعون في بحثهم عن المرعى، والغنائم، والمجد، أو النداء الديني، كانوا على العكس من ذلك. ركز هذان الباحثان مجدداً على أن مجتمع التخوم ترك مجالاً أوسع للتجديد، والتولد، الذاتي المختلف عن الأصل، والتغير.

أما بالنسبة لما اختلفا عليه، فإن كوبرولو وفيتك كانت لهما آراء متباينة حول موضوع «العامل القبلي» وأثره، خاصة في بداية بناء الدولة العثمانية. إلا أنهما معاً لم يفهما التشكيلات القبليّة بالمعنى المستخدم من قبل علماء الأنثروبولوجيا الحديثين. بالنسبة للمؤرخين القبليّة تستوجب قرابة عصب. مما يعني أنه ينبغي في الأساس أن تكون مؤلفه من علاقات دموية، أما النسب فيجب أن يكون بالإمكان العودة به إلى أصل واحد مشترك، على الأقل من ناحية المبدأ. انطلاقاً من هذا المبدأ، كان كوبرولو جاهزاً لقبول فكرة أن العثمانيين يتحدرون من قبيلة تنتمي إلى فرع قايي «Kayi» من الترك الأوغوز «Oguz»، كما ادعت معظم المصادر وكما أصبح لاحقاً مقولة عثمانية رسمية. إلا أن فيتك أوضح بأن التقارير الأولى عن نسب عثمان وقبيلته تعود إلى

القرن الخامس عشر، والأكثر أهمية، إن هناك العديد من التباينات في الأنساب التي تعزوها المصادر المختلفة للعثمانيين. وعلى قاعدة هذه التعارضات، استخلص فيتك أن العثمانيين الأوائل لا يمكن أن يكونوا متجانسين قبلياً؛ وإلا لكان عندهم نسب ثابت بإمكانهم إظهاره. وبنفس الاتجاه، فإن محمد الثاني ما كان بمقدوره أن يتلاعب بإشاعة فكرة الأصل الكوميني «Commenian» لعائلته. وحتى بعد اعتراضات فيتك، أصر كوبرولو على صوابية هوية القايية للعثمانيين، بينما أكد في نفس الوقت بأن هذه القضية تشكل أمراً ثانوياً لأن الأصل القايي، بالنسبة إليه، لم يكن له أي إسهام خاص في قيام الدولة. كما كان هناك أيضاً اختلاف أساسي في المقاربة بين الباحثين. كوبرولو نظر إلى مجتمع التخوم كأمشاج عريضة متباعدة الخيوط تتكون من قوى اجتماعية متعددة (رجال قبائل، محاربين، دراويش، آخيين، مهاجرين، مثقفين وبيروقراطيين)، قدمت كل واحدة منها إسهاماتها المميزة في بناء الدولة من خلال الإمارات التركية - الإسلامية. وكل هذا وقع في النهاية تحت سيطرة بعض المتحدرين من قبيلة القايي، لأنه صدف وجودهم في منطقة فضلته الظروف. أما فيتك فقد ركز اهتمامه على عامل واحد محدد داخل مجتمع الأوك «UC»، عبارة تعني رجال التخوم في مصادر العصور الوسطى، جمع أوكات «Ucat»، بيئة الغزو وروحته، والتي كانت أساسية في ظهور الإمارات ولاحقاً الدولة العثمانية، التي سيطرت على الآخرين. بالنسبة لفيتك، التاريخ السياسي للتخوم صُنع من قبل مجموعات من الغزاة، مجاهدين في سبيل العقيدة، انتشروا في مناطق الحدود مع زوال السلطة السلجوقية، وكونوا إمارات طامحة، ومنهم المجموعة التي قادها الغازي عثمان، والتي كُتب لها النجاح بسبب موقعها الموفق. المصادر العثمانية الأولى، من سنة 1337م، والتقويم الأحمدى الذي انتهى سنة 1410، كلاهما يذكران العديد من المراجع التي تذكر بيت عثمان كغزاة، مما يؤكد في رأي فيتك أهمية روحية الغزو بالنسبة للدفع العثماني الأول.

جماعات الغزو هذه من الممكن أن يكون قد انضم إليها أعضاء من بعض القبائل الأخرى إذ أنها لم تكن تتألف من مجموعات قبلية متجانسة،

وعلى الأغلب، فإنها تكونت من محاربين مغامرين من خلفيات مختلفة. وبالمقارنة مع إمارة منتشي، مثلاً، يلحظ فيتك بأن «القراصنة الغزاة» الذين أنشأوا هذه الإمارة كانوا «بالأصل مزيجاً من الأتراك وعناصر محلية من ضواحي أراضي القسطنطينية» وقد انضم إليهم لاحقاً «عدد ضخم من البحارة البيزنطيين... بسبب البطالة»⁽¹⁾. ولاستخدام تعابير أكثر حداثة، فإن جماعات الغزاة كانوا عبارة عن كينونات «ضمنية» بالنسبة لفيتك، ولم يكونوا قبائل. وبما أن القبيلة تتضمن رابطة النسب (والتي برأيه، لم يتمكن علماء الأنساب العثمانيين المتأخرين من إثباتها بشتى الأحوال)، ولأن مجموعات المحاربين الذين اعتُبروا مسؤولين عن إنشاء الإمارات، كانت تربطهم بعضهم ببعض كل الروابط ما عدا النسب، لذلك رفض فيتك فكرة أن قبيلة ما يمكن أن تكون الوسيلة لتأسيس الدولة العثمانية. إن تماسك الإطار العسكري - السياسي للإمارات جاء من أهداف وعقيدة مشتركة، وليس من رابطة الدم.

إن الفروقات بين كوبرولو وفيتك لم تناقش بشكل واضح في الأبحاث المتأخرة لأن الموضوع قد أثقل بالاعتبارات القومية وبنقائضها. ومن هذه الزاوية، فإن دور «المنشقين» البيزنطيين والمهتدين في واحدة من الإسهامات السياسية الأساسية للحضارة الإسلامية - التركية كان من المواضيع الحساسة والمشحونة. إن الهجوم العنيف ضد الكتابات التاريخية الغربية، التي كثيراً ما مالت إلى إظهار الأتراك كبرابرة غير مبدعين، يجب أن تكون موضوع بحث بحد ذاتها كجزء من التاريخ الفكري لنهاية الفترة العثمانية وبداية العهد الجمهوري. (وكثافة هذه الانتقادات يجب أن ينظر إليها في ضوء واقع الكتابات التاريخية الغربية التي كانت عنيفة وبشكل خاص في محاولاتها لوسم العثمانيين والإمبراطورية «التركية» بالبربرية واللاشرعية لقيامها على أراضٍ داخل القارة الأوروبية وحكمها شعوباً مسيحية).

كوبرولو من شاعر إلى ما بعد مهنته الأكاديمية كسياسي، كان جزءاً من هذا التوجه كداعية قومي (على الرغم من أن قوميته كانت مختلفة عن الاتجاه

الرسمي بطرق مختلفة). وقبل محاضراته عن قيام الدولة العثمانية، كان قد نشر ما تحول إلى دراسة ذات تأثير كبير، تنتقد وجهات النظر السائدة بالنسبة للتأثيرات البيزنطية على المؤسسات العثمانية، وخاصة في الناحية الإدارية⁽¹⁾. وبالرغم من كل هذا، فإن رواية كوبرولو عن أسس الدولة العثمانية، حيث أصر على وجود خامة لأساس قبلي، وعلى وجود قاعدة إثنية، وحث على عدم التركيز على عامل التحول الديني، فكان من السهل قراءته كدعاية قومي. وفي الواقع فإن كتابه لا يخلو من تجاوزات صارخة.

ومن جهة أخرى، فإن رواية كوبرولو للأحداث خلت من بساطة «القوة المحركة» الواحدة. ورواية كوبرولو التي تشكلت تحت تأثير التقاليد الدركايمية (نسبة إلى Durckheim) في الفكر التركي، كانت مميزة بتمائلها مع الاتجاه التاريخي الجديد لمدرسة الآتال «Annales»، المجلة التاريخية الفرنسية، والتي كان لها في حينه خمس سنوات من العمر⁽²⁾. لذلك وبدلاً من التعاطي مع النواحي السياسية والعسكرية وتتبع سلسلة الأحداث، أعلن كوبرولو وبوضوح

(1) Mehmet Fuat Köprülü, «Bizans Müesseselerinin Osmanlı Müesseselerine Te'siri (1) Hakkında Bazı Mülâhazalar, «Türk Hukuk ve İktisat Tarihi Mecmuası 1 (1931): 165-313. «Les institutions byzantines ont-elles joué un rôle dans la formation des institutions ottomanes?» Viie Congrès international des Sciences Historiques: Résumés ... (Warsaw, 1933), I: 297-302, is a French summary of this work, which is now published as a book in three languages; Alcune osservazioni intorno all'influenza delle istituzioni bizantine sulle istituzioni ottomane (Rone, 1953); by the original title in Turkish, with adGLWLR QDO Q R WH V E\ 2 U RD1981); Some Observations on the Influence of Byzantine Institutions on Ottoman Institutions, trans. G. Leizer (Ankara, 1993).

(2) إن التعريف بالدركايمية السوسيولوجية منسوب إلى ضياء غوكالب، عالم الاجتماع الذي كان المعلم المرشد لجيل كامل من القوميين في بداية القرن العشرين. وكتلميذ لمدرسة غوكالب - كوبرولو، كان خليل اينالجيک واعياً لهذا التراث، راجع مقالته «Impact of the Annales School on Ottoman Studies and New Findings», Review I (1978): 69-70.

وقد كتب اينالجيک أيضاً تقويماً أكثر تفصيلاً لأفكار غوكالب السوسيولوجية: «Sosyal Degisme, Gökalp ve Toynbee», Türk Kültürü 3/31 (May 1965): 421-33.

أنه ينوي أن ينظر إلى قيام الدولة العثمانية على أساس بنية المجتمع التركي الأناضولي و«تطور مؤسساته الدينية، والقانونية، والاقتصادية، والثقافية أكثر من أحداثه العسكرية والسياسية»⁽¹⁾. وعلى الرغم من أن هدفه كان من جهة، تصوير الفترة التاريخية العثمانية الأولى كاستمرارية للأناضول السلجوقي في مرحلته المتأخرة إلا أنه مع ذلك تجنب عرض رواية منظمة متسلسلة. وفي مراجعة لوسيان فيفر «Lucien Fevre» لكتاب كوبرولو في مجلة الأثال الحديثة الصدور، وافق فيفر كوبرولو على «كرهه الشديد للتفسيرات الأحادية الجانب» مضيفاً أن كوبرولو «بابتعاده عن مرحلة التاريخ السردى، قد أنتج عملاً معقداً في التحليل والتركيب»⁽²⁾.

وقصة كوبرولو، التي كتبت من قبل رجل يزدرى التفسيرات القائمة على عامل واحد حتمي، ظهر أنها تفتقد إلى التركيز من وجهة نظر الكتابة التاريخية التقليدية. وفي مدخل النسخة التركية لكتابه سنة 1959، لحظ كوبرولو وبشكل دفاعي أن «بعض المستشرقين المحترمين المشتغلين بمسألة جذور الإمبراطورية العثمانية، وعلى الرغم من كونهم علماء لغة جيدين، ما استطاعوا تجاوز الإطار العتيق والتبسيطي عندما تعاطوا بالموضوعات التاريخية لأنهم لم يتمكنوا من الخروج من الإطار العتيق والتبسيطي عندما تعاطوا بالموضوعات التاريخية لأنهم لم يتمكنوا من الخروج من تأثير ذهنية التاريخ السردى... والمحاولات المتكررة للتفسير بعامل واحد، أي من جانب واحد، لأي عمل تاريخي والذي وجد أساساً تحت تأثير عوامل مختلفة كثيرة، ليس أكثر من إهمال للتعقيدات، أي، حقيقة الحياة»⁽³⁾.

Köprülü, Origins, 24.

Lucien Fevre, «Review of Köprülü, Les origines de l'empire ottoman», Annales: ESC 9 (1937): 100-101. وقد أورد كوبرولو فقرات مطولة من هذه المراجعة في مقدمة نسخته التركية.

(3) S U Origins, xxiii، وقد كان كوبرولو أكثر وضوحاً في إبراز نفس الانتقادات ضد تفسير فيتك «الأحادي السبب» في كتابه «Osmanli Imparatorlugunnun Etnik Mensei Meseleleri», Belleten 7 (1943): 285-86.

إن صورة كوبرولو الثقافية - الاجتماعية لساكني التخوم تشير إلى عدة عوامل منحت مجتمع الأوك القدرة على التحرك وإمكانية التوسع، وإلى خصائص عثمانية مختلفة فضلتهم بشكل خاص. أما الأصل القايي، فلم يعط أي دور تفسيري أو سببي، في حين ذكر الدفع الديموغرافي من الشرق كواحد من العوامل التي حوّلت تحرك الحدود إلى توسع عثماني.

وعلى الرغم من تعقيداته التاريخية، كان كوبرولو ملتزماً بمعتقد قومي أساسي وبشكل أقوى من اعتقادات المؤرخين الذين عارضهم. فإذا كان على الدولة العثمانية أن تُرى على أنها من صنع الأتراك، فإن هؤلاء الأتراك ينبغي أن يكونوا من الأتراك الأصليين الفعليين، وليس من المتركين. ولذلك كتب يقول: «من بين رجال الدولة العثمانية العظام الذين اكتسبوا شهرة في القرن الرابع عشر، وحتى في القرن الخامس عشر، كان هناك القليل جداً من المتحولين المسيحيين، كعائلة كوز ميكال «V H O» مثلاً. «وليس التنظيم الإداري البيروقراطي وحده الذي أسس بناء على الأعراف السلجوقية والإيلخانية، التي تكونت من عناصر تركية، وإنما أيضاً الأشخاص الذين كانوا على رأس السلطة والجيش كانوا وبشكل شبه ثابت أتراكاً. وكل الوثائق التاريخية التي نملكها تؤكد وبشكل قاطع هذه القضية»⁽¹⁾. وليس من الضروري القول أن هذه الفقرة لم تتضمن أي مرجع، إذ كيف يمكن أن تتضمن مراجع؟ كيف يمكن لأحد أن يظهر أن بيروقراطيي القرن الرابع عشر كانوا أتراكاً «بالكامل»؟ القلة النادرة منهم كانوا معروفين كأشخاص، ومعظمهم ظهر في الوثائق التاريخية للمرة الأولى. وأكثر من ذلك، ينبغي أن نلاحظ الفكرة المسبقة المعتمدة كموضوع لهذا البحث: «رجال الدولة العثمانية العظام». وكيفما جرت محاولة تصنيف جذورهم الإثنية، فبعض هؤلاء الرجال العظام، وقد فشل كوبرولو في ملاحظة ذلك، ولدوا لنساء عظيمات لم يكنّ أتراكاً بالمولد، مثل نيلوفر خاتون، أم مراد الأول.

وبالنسبة للنساء والرجال، الأقل شهرةً، يبدو أن كوبرولو كان قاطعاً بنفس الدرجة في تأكيده على الصفاء العِرقي لأكبر عدد ممكن منهم، غافراً لهم ارتدادهم وربما أيضاً كونهم فاتحين عثمانيين متحولين بالقوة. وضد الوقائع، يبرهن كوبرولو أنه: «بالنسبة للمصادر العثمانية، غوينوك» «والتي كانت مسكونة بالمسيحيين بالكامل عندما مر فيها ابن بطوطة، ينبغي أن تكون قد دخلت الإسلام في نهاية نفس القرن، لأن بايزيد يلدرم أحضر جماعاتٍ من هناك ومن توربالي لإنشاء الحي الإسلامي الذي أسسه في القسطنطينية. وحتى لو كان هذا التقرير صحيحاً، فمن الأصح تفسيره بإقامة عنصر تركي جديد هناك بدلاً من تحول ديني عام. منطقياً لا يستطيع أحدنا أن يقبل وبسهولة أن الحي الإسلامي في القسطنطينية كان وببساطة مسكوناً من قبل يونانيين أصبحوا حديثاً مسلمين»⁽¹⁾.

ولاحقاً تخلص كوبرولو حتى عن حذره وأعلن بتأكيد قاطع أن «الدولة العثمانية قد تأسست من جانب الأتراك كلياً في القرن الرابع عشر». ثم، وعن غير قصد، أفشى أخيراً سره عندما أكد، معتمداً على المنطق، أنّ «حقيقة كون عدد كبير من حكام الإمبراطورية البيزنطية أتوا من عناصر أجنبية لا ينهض دليلاً على أن اليونانيين كانوا مفتقدين للمهارة الإدارية، فإن أي وضع مماثل حدث في الإمبراطورية العثمانية لا يمكن أن يستخدم كدليل على أن الأتراك كانوا مفتقدين للمهارة الإدارية»⁽²⁾.

النقطة الأخيرة، وبالتحديد، «المهارة الإدارية» لشعب من الشعوب، ومحاولة إثباتها «للعالم المتحضر» بشكل خاص، كانت أكثر من مسألة اعتزاز قومي، وكما ذكر سابقاً، فإن مثل هذه المناقشات لم تكن إلا صدىً لأحد المبادئ الأساسية «للنظام العالمي الجديد» بين الحربين العالميتين: أي شعب له الحق في وطن في العالم المتحضر إذا استطاع أن يثبت أن عنده في

Ibid., 86-87.

(1)

Ibid., 87-88.

(2)

تجربته التاريخية ما هو ضروري لإقامة دولة مستقرة وليحكم بطريقة متحضرة. وهذا واحد من أهم الأسباب التي دفعت الدول القومية إلى بناء ماضٍ يتوقون إليه توقعهم إلى إقامة خطط ومشروعات للتحديث الصناعي. فالأجيال الجديدة تستطيع كما أوضح مصطفى كمال أتاتورك في قول منقوش اليوم في العديد من الأماكن العامة في تركيا: «أن تكون فخورةً [بالإنجازات الماضية للأمة]، وأن تعمل بجد، وتكون واثقة [بالمستقبل]». اتخذ كوبرولو مسلكه الخاص بعيداً عن التاريخ الرسمي وما يسمى بمقولة التاريخ التركي، بتجاوزاتها السيئة الصيت مثل نظرية «لغة - الشمس»⁽¹⁾ وفي كل الأحوال، فقد كان كوبرولو وبشكل طبيعي رجل زمانه.

قد لا يوجد مآزق أكثر خطورة من المغالطة الجينية للإيقاع بالمؤرخين، ربما لأنهم، وبحسب طبيعة عملهم، ميالون إلى تقييم أهمية الحقيقة لأي من تأكيداتهم على أساس مصادر نشئية. ولذلك يبدو أن صحة رواية كوبرولو كان مشكوكاً فيها، ليس بالضرورة بسبب تحليل محتوياتها، وإنما وببساطة لأن كوبرولو كان معروفاً بانغماسه في مناظرات قومية عنيفة وبخضوعه لمفاهيم الصفاء الإثني. وعلى كل حال، فإن نظرية فيتك Wittek هي التي حصلت على قبول عام بين جماعات الباحثين في العالم الذين يكتبون بلغات أوروبية غربية، في حين اعتبرت أفكار كوبرولو تتحدر من فضل مستوى ممكن لكتابة تاريخية قومية، هذا على الرغم من الاحترام الذي حظي به كوبرولو كبحاث. فأعماله عن التاريخ التركي الديني والأدبي في العصور الوسطى استخدمت كمصادر أساسية لا غنى عنها، إلا أن «مقولة الغزو» عند فيتك هي التي أصبحت الرواية النهائية لأصول الدولة العثمانية في جزء واسع من عالم المثقفين، وبسبب استحضارها لتصورات فروسية، دخلت عالم المعالجات الشعبية.

(1) إن نظرية لغة - الشمس تستند على قاعدة وجهة النظر الشمسية حول أصل وطبيعة اللغات الإنسانية، في إدعائها أن اللغة التركية كانت اللغة الأولى UR التي اشتقت منها كل اللغات المتحضرة. راجع: BÜSRA ERSANLI BEHAR, İktidar ve Tarih: Türkiye’de «Resmî Tarih» Tezinin Olusumu (1929-1937) (İstanbul, 1992), 175-81.

إلا أنه ليس بالإمكان أن نعرض لمقولة فيتك على أنها تمثل إجماعاً في هذا الحقل، كما فعل البعض من مؤيديه، لأن هذا يعني التفاضلي عن رأي جماعة العلماء الأتراك وإلى حد ما البلقانيين، حيث لا تزال أفكار كوبرولو - غيبون تلعب دوراً هاماً⁽¹⁾. ففي تركيا كادت آراء كوبرولو القبليّة - الإثنية،

(1) وعلى الرغم من أنه قد يكون صحيحاً القول أن «الأثر الوحيد والأعظم على الرؤية الحديثة لأوائل التاريخ العثماني كان عمل الباحث بول فيتك». إلا أنه من الخطأ أن نفترض بأن مقولة الغزو لفيتك «قُبلت من الجميع: فالأتراك القوميون يمكن أن يعتبروا غزاة فيتك، أو محاربيه الدينيين، تجسيدا للبطولة الإسلامية - التركية». (Imber, The Ottoman Empire, 12-13) كانت هناك أرضية مشتركة واسعة بين فيتك وكوبرولو؛ وإضافة إلى ما قيل، يجب أن نلاحظ أن كوبرولو، والعديد من البحاثة الأتراك قبل فيتك وبعده، كانوا قد قبلوا فكرة أنه كان هناك غزاة في أناضول العصور الوسطى وأن عثمان وخلفاءه وبعض أتباعه يتمون إلى هذا التصنيف. إلا أن هذا بالتأكيد ليس مشابهاً لانتمائهم إلى فرضية الغزو. وعلى الرغم من أن بعض مقالاته قد ترجمت، فإن كتاب فيتك لم ينشر بالتركية حتى سنة 1971 (translated by Güzin Yalter and first published as Beiheft to I. H. Danismend's İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi, and then as fascicule no. I in Bati Dillerinde Osmanlı Tarihleri [Istanbul, 1971], 3-52). An earlier translation by Fahriye Arik is cited in Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, vol. I (Ankara, 1947), 97-98, but it remained unpublished.

ولم تكن آريك نفسها مقتنعة بآراء فيتك وكتبت مقالة (ولكنها انتهت لأن تكون خاطئة) لتثبت بأن الرمز على نقود أورخان كان الشعار القبلي للقايي. أما بالنسبة لـ أوزون جرسى، أكثر المؤرخين المعروفين في الجمهورية التركية، والأكثر ارتياحاً كسارد للأحداث، فإنه لم يلتزم علناً بأية فرضية. إلا أننا نتبين نظاماً تفسيرياً في عمله، فهو أقرب إلى كوبرولو، ليس فقط بسبب قبوله الأصل القبلي القايي وإنما أيضاً بسبب تركيزه على دور الآخيين، وال دراويش، والمؤسسات الأولى القائمة على أساس النماذج الإسلامية - التركية. والأكثر أهمية كان تبنيه للمفهوم القائم على الأصل القبلي الذي سيطر بشكل مطلق في تركيا، وهذا لوحده كان كافياً لتجنبه تعميم ادعاء فيتك. راجع أيضاً رقم 67 في الأدنى. وكما في مسألة توغان (راجع رقم 38 في الأدنى)، فإن العديد من البحاثة الأتراك لم يكونوا مرتاحين لم تضمّنته هذه المقولة من تعصب ديني. وقد ظهرت ترجمة روسية لكتاب كوبرولو سنة 1939 (موسكو). وكذلك ترجمة صربية - كرواتية مع مقدمة بقلم نديم فيلييوفيك Nedim Filipovic وقد نشرت قبل الطبعة التركية: Porjeklo Osmanske Carevine (Sarajevo, 1955)

إضافة إلى تركيزه على المصادر الإسلامية - التركية للجهاز الإداري العثماني، كادت تصل إلى مستوى العقيدة تقريباً، ثم سارت في اتجاه أكثر شوفينية بعد أن نزعت عنها تدريجياً عناصرها الديموغرافية والسوسيولوجية⁽¹⁾. وكان هناك دائماً من طور وجهات نظر بديلة في تركيا وغيرها كما سنرى لاحقاً. وبشكل عام، فإن تطور الجدل من الحرب العالمية الأولى إلى الثانية قد عمل على تشكيل (نسج) أوسع، تم من خلاله تصور قيام الدولة العثمانية إلى يومنا هذا. أما تصور فيتك بشكل خاص فقد نُقل وأعيدت صياغته إلى أن تحوّل إلى نصّ تقليدي راسخ في جزء واسع من العالم، ونفس المصير أصاب تصور كوبرولو في تركيا.

فتح الأرشيفات العثمانية للباحثين غير مجرى الدراسات العثمانية بدءاً من سنة 1940. فكمية ونوعية المواد الأرشيفية، والتي تشكّل بمجمليها معلومات واقعية جمعها بيروقراطيون دقيقون، تزامنت تماماً مع بروز أهمية التاريخ الاقتصادي والاجتماعي عالمياً، حتى أن مسألة «المصادر» العثمانية، كما مسألة بقية المصادر بشكل عام، بدأت تظهر كموضة قديمة، خاصة وأنها تستدعي كل أنواع «المشقات» التي شعر المؤرخون المُحدثون في ردة فعلهم ضد التقاليد الفيلولوجية للقرن التاسع عشر، أنه من الأفضل تركها لمؤرخي الموضة القديمة.

إلا أن استثناءً واحداً لهذا التعميم برز مع صدور كتاب جورج أرناكس George Arnakis سنة 1947، والذي طرح تساؤلات حول منهجية ونتائج كل من كوبرولو وفيتك⁽²⁾. وفي مراجعة لهذا الكتاب، ألقى (بيزنطي) بارز ضوءاً على المواقف الأساسية لهؤلاء الباحثين في تلخيصه لنتائج أرناكس:

استنتاج غيبون المجلد بأن الامبراطورية العثمانية كانت أساساً من صنع الأوروبيين وليس من صنع الشعب الآسيوي حصلت على دعم. أما وجهة نظر

(1) ويناقش Aydın Taneri مثلاً بأن مولانا جلال الدين الرومي ليس فقط تركيا وإنما قومياً تركيا، راجع كتابه: *Mevlânâ Âilesinde Türk Milleti ve Devleti Fikri* (Ankara, 1987)

George Georgiades Arnakis, *Hoi protoi othomanoi* (Athens, 1947).

(2)

كوبرولو المعاكسة، القائلة بأن العثمانيين لم يكونوا سوى تجسيد لكل ما هو مسلم وتركي فقد انتقدت بشكل لاذع، ووصفت بأنها فكرة إثنية تركية حديثة. أبرز فيتك أيدولوجية الغزاة بدلاً من العرق التركي كما فعل كوبرولو؛ وبالتالي فقد رفض آراء هوتسما «Houtsma» القائلة بأن العثمانيين كانوا فرعاً من قبيلة القايي من الأتراك الأوغوز. إلا أن أرنأكس رأى أن أشعار الأحمدي «Iskendername»، تعبر عن روحية بطولية وليس عن روحية تاريخية، وأن الإحالة إلى الغزاة في قصيدته، كما في نقش بورصه لا يعني ما فهم فيتك أنه يعنيه. ركز أرنأكس على أن المصادر توحى بأنه لم يكن هناك تعصب إسلامي خلف النشاطات العسكرية للعثمانيين الأوائل: هدفهم، كما أوضح أرنأكس، لم يكن نشر الإسلام أو تحطيم المسيحية وإنما وببساطة الغنيمة. ثم ذهب إلى أبعد من ذلك في توضيحه... أن العثماني الأوائل جعلوا من السهل على اليونانيين الانضمام إليهم... وباختصار، يعتقد أرنأكس أن كل دارسي مسألة المؤسسين العثمانيين منذ غيرون قد ضلّوا سبيلهم، بتركيزهم على الخصائص الإسلامية الأولية أو التركية الأساسية للعثمانيين الأوائل؛ إن الشروط المحلية في بنية يجب أن تدرس بكثافة قبل أن يتوصل أحدنا إلى تصور متكامل⁽¹⁾.

هذه الفقرة القصيرة، مهما كانت تحيزاتها، تجمع وباختصار بليغ مختلف المواقف والمواضيع المتضمنة. فمن الناحية المنهجية، كانت القضية الأساسية في دراسة قيام الدولة العثمانية هي: هل ينبغي أن نركز اهتمامنا على الشروط المحلية في بنية، أم على العثمانيين الأوائل كجزء من التقاليد الأناضولية - التركية الواسعة؟ الموقف الثاني كان يتضمن على الأقل استخدام بعض المصادر العثمانية حتى القرن الخامس عشر، الأمر الذي يرفضه أصحاب الموقف الأول جزئياً وبشكل متوازٍ مع كل موقف. إزاء هذا الموضوع يدعو البعض إما إلى التركيز على انحلال بيزنطية والثروة البشرية التي قد جعلها هذا الوضع في خدمة العثمانيين الأوائل، أو على الإمكانيات البناءة للتراث الإسلامي - التركي. ومن الصعب أن نرى غير الأسباب الأيدولوجية ما يمنع

من معالجة هذه البدائل على أرضية متساوية. غير أن معظم هؤلاء العلماء فيما يبدو يميلون إلى تصور أن الدولة العثمانية كانت «أساساً من صنع الأوروبيين» أو «الشعوب الآسيوية» بدلاً من السعي لدمج وجهة نظر بشتية ضيقة مع الإطار الأوسع للتقاليد الإسلامية - التركية. لقد كان فيتك أكثر مرونة من الآخرين حين سعى إلى مزج روايته للعثمانيين كورثة لتقاليد الغزاة مع وصف الانحلال البيزنطي في بشتية وملاحظته انشقاق أتباع بيزنطية عنها، إلا أنه بتركيزه في النهاية على عامل «أيدولوجية الجهاد المقدس» بمفرده لم يترك مجالاً لاعتبارٍ جذّي للعوامل الأخرى.

على أيّ حال، هناك إجماع بين هؤلاء الباحثين، فيما يبدو، على تقدير الدولة العثمانية الأولى، ولكن السؤال الهام كان: إنجاز من كانت؟ وإلى جانب موقف كوبرولو الذي ذكرناه، كان موقف أرناكس المؤكد بأنه، مع فتح بورصة، «تعزز العثماني بالتقدم الاجتماعي لسكانها المدنيين. وبجعلهم بورصة عاصمتهم، بدأ العثماني إصلاحات...، ونظموا دولة نموذجية؛ فتقدمهم وانتشارهم السريع في أوروبا يُعزى إلى التجربة الإدارية والتقاليد المدنية لمواطني بورصة، ونيقية «Nicaea» ونيقوميديا «Nicomedia»⁽¹⁾. من الواضح إذًا أن أرناكس مثل غيبون، ركز على بشتية وكل ما اعتبره من أفعال العثمانيين الأوائل بدلاً من «تخيلات» الأجيال اللاحقة، وبالتحديد، مؤرخي القرن الخامس عشر. وبالنسبة لاستنتاجاتهما المحددة، فإنهما معاً ركزا على إسهامات العناصر غير التركية وغير الإسلامية بالأساس في قيام الدولة العثمانية، بينما دعم كل من كوبرولو وفيتك دور التقاليد الإسلامية التركية (التي فُهمت من قبل الأخير في إطارها الثقافي وليس الإثني). وبالنسبة لتفسيرهم للمصادر، رفض غيبون وأرناكس التواريخ العثمانية على أنها صناعات متأخرة، بينما فضّل كوبرولو وفيتك استخدام هذه المصادر، على الرغم من إدراكهما لطبيعتها الإشكالية، وبعد أن طبقا ما اعتبراه ضرورياً من وسائل صارمة لتحليل النصوص.

بإمكاننا إذن أن نميز وبوضوح خطين مميزين لطريقة فهم بدايات التاريخ العثماني: الخط الذي اتبعه غييون وأرناكس والآخر الذي اتبعه كوبرولو وفيتك؛ غير أنه لا ينبغي لنا أن نأخذ هذين الخطين بصرامة؛ فبعض الاختلافات بين كوبرولو وفيتك قد سبق وذكرناها. وينبغي أن نذكر هنا أيضاً بأن تركيز غييون على حماسة العثمانيين المهتدين حديثاً في أيامهم الأولى، وخسارتهم لمثالياتهم في المرحلة النهائية للإمبراطورية، هو إلى حد ما مُوازٍ لوجهة نظر فيتك حول الغزو. وهذا الدور الذي عزاه كل من غييون للدوافع الدينية، وفيتك لمقولة الغزو، هو بالتحديد ما رفضه أرناكس، وكذلك النقاد الجدد، في تحليلهم لقيام الدولة العثمانية.

البحث عن البدائل

قبل أن نتقدم نحو مقولة الغزو لتحليلها، لا بد من التوقف عند بعض الإسهامات الهامة في دراسة هذه الفترة بشكلٍ خاص، ولو لنبرهن من خلالها، في الآن نفسه، بأن هذه المقولة لم تكن محبذةً عند العديد من الباحثين في هذا الحقل.

زكي واليدي توغان (1890-1970) «Zeki Velidi Togan»، عالم تركي شغل منصب رئيس الوزراء في جمهورية بشكيريا، التي لم تعيش طويلاً بسبب ضمها إلى الاتحاد السوفيتي سنة 1922، فهاجر عندها إلى تركيا، وأدخل رؤية غير اعتيادية للتاريخ التركي بسبب خلفيته وثقافته. في عمله الضخم حول التاريخ العام للأتراك، والذي كتبه أثناء وجوده في السجن لاتهامه بتأييد الطورانية، كما في دراسات أخرى، ركّز توغان غالباً على أهمية التراث الإيلخاني، وكذلك على الأتراك الشرقيين، غير الأوغوز، وهي عناصر أراد من خلالها تذكير الأتراك الغربيين، ورثة التقاليد العثمانية، بأبناء عمهم غير الشرق أوسطيين⁽¹⁾. وإذا كانت روحية الغزو قد لعبت دوراً، فإن توغان يؤكد، أنها لم تكن من تراث العرب السابقين الذين سكنوا التخوم، وأن الأتراك

A. Zeki Velidi Togan, Umumi Türk ne Giriş, 3d ed. (Istanbul, 1981), esp. see 332-33. (1)

الأوغوز الذين سكنوا الأناضول واتخذوه موطناً لهم، لم يرثوا هذه الروحية عن العرب. وإنما أحضرت إلى غرب الأناضول مع بداية القرن الرابع عشر من قبل الأتراك المسلمين الذين أجبروا على الهجرة إلى هناك، من أوروبا الشرقية، بعدما خسروا أراضيهم بخسارتهم لبلاد الإسلام «Islamdom» عندما غلب الأمير المسلم نوغاي، من جانكيزخانيي التونوردا سنة (1299)، بقيادة توكتاغو خان الزرادشتي⁽¹⁾. فبالإضافة إلى عامل الحماس الجديد المتطور (المدعوم من قبل الإيلخانيين) لإعادة فتح الأراضي للإسلام، كان هناك عامل الضعف الداخلي للقسطنطينية، وانعدام التعصب الإسلامي بين العثمانيين الأوائل، الذي سهل اندماج الأتراك والمغول شبه المسلمين وكذلك المرتدين عن المسيحية. زد على ذلك أن مرابع قبيلة عثمان، يقول توغان، كانت تقع بالقرب من الطريق التجارية البيزنطية - الإيلخانية؛ كل هذه العوامل جعلت من الطبيعي للمحاربين الأتراك أن يسعوا لتوسيع سلطتهم وبناء دولتهم⁽²⁾. أما الباقي فترك للقيادة الجيدة، لتبني تقاليد إدارية جيدة، بفضل تراث الإيلخانيين، والدعم الذي أعطي وأخذ من الآخيين والدراويش، وسياسة استيطانية منظمة طبقت بشكل جيد بعد عبورهم نحو الروملي.

أهمية التجارة، نُظر إليها من موقع آخر، من قبل مصطفى أكدغ (Mustafa Akdag 1972-1913)، ومؤرخ تركي اختار أن يركّز على بعض ما جاء في مراجع التاريخ العثماني، مما يتعلق بالتبادل التجاري بين قبيلة عثمان

(1) المصدر السابق، 333 - 35. وفي نفس العمل (341) أوضح أيضاً ما فسره على أنه تأثيرات الـ كيشاك Kipchak (في مواجهة الأوغوز) في الاستخدامات العثمانية الأولى. وقد تبادل توغان الاتهامات مع كوبرولو في ما سمي بالمجادلة الثانية للقايي: أصر كوبرولو على أن سلالة عثمان كانت من الفرع القايي للأتراك الأوغوز بينما وضع توغان احتمال أن تكون من أتراك القايي الشرقيين.

(2) المصدر السابق، 317 - 51. حول عصبية العثمانيين الأوائل الدينية كتب توغان: «لنقل أن مستواهم الحضاري كان أدنى وبشكل لا يقارن، مع أمراء كستامونو Castamonu أو الجرمن Germiyan، ولكنهم كانوا بعيدين عن التعصب الإسلامي، على الرغم من أنهم كانوا مسلمين». (336 - 337).

وجيرانهم المسيحيين. ومنها طوّرت نظرية جريئة تفترض وجود «مركز اقتصاد حوض مرمر» الذي لعب دوراً مهماً في التوحيد والدمج في زمن أرطغرل وعثمان. إن الدولة التي أنشئت من قبلهم، كانت التعبير السياسي لهذه الحقيقة الاقتصادية، وتوسعت من خلال الطرق التي تصل حوض مرمر بالمناطق الاقتصادية الأخرى. هذه الفرضية لم يكن لها نصيب بكسب أي اعتراف بها. وزاد من ضآلة تأثيرها مهاجمتها على أرضية حقائقها الرديئة وتحليلاتها الفضفاضة، من قبل تلميذ لكوبرولو هو خليل إينالجيک «Halil Inalcik»، الذي ما لبث أن ظهر في طليعة دارسي جيله وقدم إسهاماته الخاصة لمسائل عديدة تتعلق بالفترة الأولى من التاريخ العثماني⁽¹⁾. فقد فشل الكتاب إذن في ترك أي أثر على المؤرخين المحترقين على الرغم من انتشاره الواسع وقراءته من قبل العامة، وعلى الرغم من أن أكدغ كان قد عاد وفضل نفس وجهات النظر في كتاب لاحق⁽²⁾، مع زيادة في التركيز على التجارة، التعايش، والعلاقات الطيبة بين الأتراك والبيزنطيين أو شعوب البلقان؛ غير أن وجهات نظره هذه لم تدعم بأي وقائع جديدة تردّ على الانتقادات السابقة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الكاتب كان قد عانى السجن بسبب أفكاره اليسارية، بعد التدخل العسكري سنة 1971، فإن الكتاب يذكرنا وباستغراب، بحقيقة أن بعض التوجهات الأساسية الخاطئة للمسار القومي، كالتقييم الكامل التأييد للفتوحات التركية، تنعكس بشكل أو بآخر على التوجهات السياسية الحاضرة في تركيا⁽³⁾.

سبيروس فريونيس «Speros Vryonis»، أميركي يوناني (بيزنطي)، كما لاحظ بعض المراجعين، على الرغم من امتعاضه من ذلك، نشر عمله البارز

(1) Mustafa Akdag, «Osmanli Imparatorlugunun Kurulus ve Inkisafi Devrinde Türkiye'nin İktisadi Vaziyeti», in two parts, Belleten 13 (1949): 497-571, 14 (1950): 319-418.

Critiqued by alil Inalcik, Tetkik Münasebetiyle», Belleten 15 (1951): 629-84.

(2) Akdag, Türkiye'nin İktisadi ve İçtimai Tarihi, تاريخ النشر الأساسي هو 1959, 2d ed., 2 vols, (Istanbul, 1974).

(3) راجع، كمثال، الاستشهادات من مقدمة Akdag، رقم 21 أعلاه.

عن الأناضول في العصور الوسطى سنة 1971⁽¹⁾. وهو يغطي الفترة التي شهدت قيام الدولة العثمانية إلا أنه لم يكن مهتماً مباشرة بهذه الظاهرة الخاصة. رصد فريونيس التيارات الواسعة للتحركات الديموغرافية، والبداءة، والتغيير الثقافي والديني في آسيا الصغرى والذي خلال أربعة قرون، حوّل ما كان شبه جزيرة أرثوذكسية هللينية إلى واحة إسلامية بغالبيتها، تسيطر عليها نخبة سياسية تركية اللسان. وفي الخلاصة القصيرة لمجموعة الاستنتاجات التي توصل إليها في نهاية بحثه الشاق، كتب يقول: «إن النجاح التركي في النهاية كان نتيجة ديناميات الانحدار البيزنطي والضغط الديموغرافي التركي البدوي»⁽²⁾. أما بالنسبة لمحاربي التخوم، والذي لاحظ أحد المراجعين غيابه عن سياق هذا الكتاب، فقد علق عليه فريونيس قائلاً: «إن فرضية فيتك كانت مثيرة منذ جيلين، والأهمية التي ما تزال تحتفظ بها الآن تقتصر على إثارة المزيد من الجدل. أما قبولها كحقيقة قائمة، واعتمادها هنا وهناك لمناطق وحقب مختلفة، فهو خطأ منهجي»⁽³⁾.

أما بالنسبة لأرنست فيرنر، «Ernest Werner» وهو ماركسي لينيني (وسيطي) من ألمانيا الشرقية السابقة، فإن القرنين الأولين من التاريخ العثماني مثلاً إطار نظام إقطاعي من خلال إخضاع العناصر ما قبل الإقطاعية والمعادية لها⁽⁴⁾. وعلى الرغم من أن إطار عمله العقائدي عتيق ومتكلف، إلا أن فيرنر كان ذكياً بتركيزه تفصيلاً على الصراعات الاجتماعية، داخل هذا الكيان

(1) Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism. راجع أيضاً أجوبته على مراجعات كتابه:

«The Decline of Medieval Hellenism...» Greek Orthodox Theological Review 27 (1982) 225-85.

Vryonis, «The Decline», 278. (2)

Ibid., 262-63. (3)

Ernst Werner, Die Geburt einer Grossmacht - Die Osmanen (1300-1481): Ein Beitrag zur (4) Genesis des türkischen Feudalismus, 2d ed. (Berlin, 1972).

ترجمة تركية بقلم Y. Öner، نشرت سنة 98-88. Bükük Bir Devletin Dogusu - Osmanlılar, 2 vols. (Istanbul).

النامي، معتبراً إياها الدينامية التي حرّكت التطورات السياسية. وقد انتقد صراحةً الكتابات التاريخية التركية لتوجهاتها الشوفينية، والتي تتضمن أيضاً تجاهلاً للصراعات داخل المجتمع الإسلامي - التركي بشكل عام وبين محاربيه بشكل خاص⁽¹⁾. ولكن، ولأن مصادره باللغات الإسلامية كانت هزيلة، ولأنه كان يتشبع بموقع ماركسي لينيني صارم، مع استخدام سطحي لفكرة الصراع الطبقي،⁽²⁾ فإن توجهاته لم تؤخذ بجدية في الاتجاهات السائدة في الدراسات العثمانية التي، وعلى الرغم من الأثر الهام للمادية شبه الماركسية عليها، منذ الستينات، وقفت إلى الجانب الغربي من خط الحرب الباردة. وعلى الرغم من أن فيرنر يصف كوبرولو بأنه قومي متطرف⁽³⁾ فإن خطه المنهجي يتمثل وبشكل واضح مع هذا الأخير؛ وهو العثماني الوحيد من الجيل الأول، الذي كانت له مصلحة في التاريخ السوسيولوجي. ففي كتابه «مصادر.. أبرز كوبرولو أهمية» البحث عن تراتبية العوامل المختلفة العناصر التي كونت مجتمع الأناضول التركي في القرنين الثالث والرابع عشر، ومواقفهم بالنسبة لبعضهم البعض، نقاط قوتهم وضعفهم، وأسباب الصراع والوحدة فيما بينهم؛» إلا أن جعبته كانت تتضمن أيضاً العديد من الأسئلة

(1) Werner's «Panturkismus und einige Tendenzen moderner türkischer Historiographie», Zeitschrift für Geschichtswissenschaft 13 (1965): 1342-54.

وبالتزامن مع المؤرخين الماركسيين للجمهوريات الاشتراكية في البلقان، فإن اعتراض فيرنر الأساسي كان على الموقف الذي يرى أن التوسع العثماني جلب معه كل أنواع الفائدة للشعوب البلقانية.

(2) وفي دفاعه الأخير عن موقفه وموقف مؤرخي الجمهورية الديمقراطية الألمانية ضد «برجوازية» العصور الوسطى، راجع:

Werner's «Einleitung» (with Matschke) and «Ökonomische und soziale Strukturen im 10. und 11. Jahrhundert», in Ideologie und Gesellschaft im hohen und späten Mittelalter, ed. E. Werner and K. P. Matschke (Berlin, 1988).

(3) بعد الحرب العالمية الثانية تخلى كوبرولو عن عمله الأكاديمي ودخل الحياة السياسية كأحد مؤسسي الحزب الديمقراطي. وفي أوائل الخمسينات، عندما ارتفعت حرارة الحرب الباردة، خدم كوزير للخارجية في حكومة تركيا المؤيدة لأميركا بشكل قوي.

الأخرى التي فضّل أن يركز عليها⁽¹⁾.

ومهما كان من أهمية الرؤى التي أدخلها هؤلاء الدارسون في تفسيراتهم لقيام الدولة العثمانية، فإن أعمالهم كان لها أولويات أخرى حازت جل الاهتمام؛ ولذلك ظلت التعليقات على موضوعنا المحدد شبه معدومة وإلى حد بعيد. المسح الشامل للتاريخ العام، الإسلامي والعثماني، يذكر أعمال مؤسسي الدولة بشكل يتوافق وفرضية الغزو. وعلى الرغم من كل ذلك، يجب أن يكون واضحاً، بأن فرضية الغزو لثبتك، حتى عندما كانت في أوجها، لم تحظى بقبول عام من قبل العاملين في هذا الحقل، وظلت أعمالهم تشكل بحثاً مستمراً عن تفسيرات بديلة. وحتى عندما قُبِلت روحية الغزو على أنها لعبت دوراً، كان هناك دائماً دافع واضح للتفكير بعوامل أخرى، وبخاصة الاقتصادية والاجتماعية منها، كالتجارة، الديموغرافيا، علاقات البدو - الحضر، وكذلك الصراعات الاجتماعية؛ كعوامل أنتجت إمبراطورية. وفي بداية الثمانينات، كتب إينالجيك مقالة جامعة موجزة ورائعة، أدخلت معظم هذه العناصر مع روحية الغزو⁽²⁾. وانتهت لأن تكون، ليس الكلمة الأخيرة حول هذا الموضوع، كما يمكن أن نتوقع، وإنما فقط رائدة لكثير من المنشورات المضطربة الهادفة إلى تدمير مقولة الغزو بكليتها.

مقولة ثيتك ونقّادها

حان الوقت الآن لمراجعة مقولة الغزو بتفصيل أكثر ومن ثم سننتقل إلى منتقديها. وكما ذكرنا سابقاً بالنسبة للموقف المنهجي المشترك مع كوبرولو، نقول إن ثيتك ما كان ليتمكن من تشكيل نظريته لو لم يفترض نوعاً من الاستمرارية في التغيير اللغوي في تقاليد الغزاة في الأناضول، وفي إسلام القرون الوسطى بشكل عام، وصولاً إلى العثمانيين الأوائل؛ وكذلك مستوى

Köprülü, Origins, 24.

(1)

Inalcik, «The Question of the Emergence of the Ottoman State», International Journal of Turkish Studies 2 (1980): 71-79.

(2)

معيناً من الاتصالات والتشابها المتزامنة مع هذه التغيرات، بين الغزاة في بشينة والأماكن الأخرى في الأناضول. وهذا بالتحديد ما دفعه إلى أن يستهل روايته عن صعود العثمانيين بمسح لتقاليد الغزاة في الأناضول بدءاً من الدنشمند في نهاية القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر. ولهذا السبب أيضاً وجد أن تجارب الإمارات الأخرى المعاصرة إلى حد ما للعثملي مفيدة في فهم القضية الناجحة والمميزة للعثمانيين.

إن القيادة العسكرية والسياسية لساكلي التخوم كانت دائماً حكرًا للغزاة، بالنسبة لقيتك. ومنذ أواخر القرن الحادي عشر، كانت مناطق التخوم الأناضولية مسيطراً عليها من قبل الغزاة، الذين كانت أعمالهم المستقلة، المتفرقة والعامة، لا تتوافق دائماً مع سياسة الإدارة السلجوقية الموجهة الفعلية نحو الاستقرار. وكانت هناك اشتباكات متعددة بين السلطات السلجوقية وأولئك الغزاة، الذين كان الدنشمند من أبرز ممثليهم في القرن الثاني عشر. وفي أوائل القرن الثالث عشر، حصل تقارب بين الغزاة والسلاجقة، إلا أن غزوات المغول وضعت نهاية لهذا كله.

في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، تضخم عدد سكان تخوم غربي الأناضول، ليس فقط بسبب تدفق المجموعات البدوية ورجال دينهم، هرباً من غزوات المغول، وإنما أيضاً لمجبيء «سلاجقة مرموقين يبحثون عن ملجأ، قادة من الجيوش المشتتة، قدماء الغزاة الذين انقطعت علاقاتهم الودية مع قونية». ولهذا كانت تواريخ هذه الفترة مملوءة بقصص حملات جيوش الوسط ضد الأوكات «Ucat» العنيدتين، وضد ما يقع خلفها من دفاعات بيزنطية ضعيفة في غرب الأناضول بعد نهاية حكم لاسكاريد «Lascarid» في نيقية. إن إعادة أحياء الزحف من الجانب التركي أدى إلى تصورات سياسية جديدة، تمثلت بظهور عدد من الإمارات الصغيرة. بالنسبة لقيتك، ساهم الأتراك البدو في الغزوات، والغارات، وقيام الإمارات، إلا أنهم كانوا على درجة أقل من الغزاة «هؤلاء المقاتلون على الحدود، الذين ولأجيال هاجموا

وسيطروا على التخوم... قادة الغزاة هؤلاء أصبحوا أمراء الإمارات⁽¹⁾. ولقد رأينا أن دراسة فتيك المفصلة لإمارة منتشي دفعته إلى أن يعزو تكوين هذا النظام لحملات القرصنة الناجحة للغزاة، الذين انضم إليهم «العمال البحريون ساكنو المناطق الساحلية» و«عدد كبير من البحارة البيزنطيين».

دول صغيرة مماثلة وجدت في مناطق أخرى من الأناضول الغربي. من بينها واحدة أسسها أتباع عثمان، الذي مثل تشكيلاً آخر للغزاة، «تكيّفوا مع حضارة البلد الذي يهاجمونه»، وهذا «ما جعل من الأسهل على الأكريتاي «Akritai» [محاربو الحدود البيزنطيون] الانضمام إليهم في مجموعات، وعلى الحصون والمدن الأصغر أن تستسلم طوعاً». من جهتهم، هؤلاء العثمانيون «قاموا بكل ما يمكن لتعزيز الانشقاق بين خصومهم...»⁽²⁾ مدفوعين بروحية الغزو، التي مزجت البحث عن الغنيمة أو المرعى، مع اقتناص الفرصة السياسية، مع الدافع الديني. كل هذه الإمارات الصغيرة سعت إلى توسيع حدودها وسلطتها. ولأسباب ترتبط معظمها بالظروف المحيطة، كان العثمانيون أكثر القادة نجاحاً في تحقيق هذا الهدف، على الرغم من أنهم كانوا الأقل أهمية في البدء. إلا أنه وبفضل مركزهم على المشارف القريبة من منطقة الحدود غير المستقرة، كانوا أقرب المجموعات إلى أضعف النقاط في دفاعات القسطنطينية. وقد استفادوا من هذه الميزة النسبية في استخدام روحية الغزو أكثر من إمارات أخرى لم تكن في موقع استراتيجي مماثل، أو كانت أوضاعها أكثر استقراراً. ونجاحات العثمانيين الأولى، أمنت بدورها، مصادر جديدة من المحاربين بمن فيهم المتحولون إلى الإسلام، وهذا بدوره ساعد في عملية نموهم.

وبينما تعتمد رواية فتيك وبوضوح على فهم لروحية الغزو يتضمن مزيداً من الفوارق الدقيقة التي تغاير شعار الحرب المقدسة. فقد كان أكثر دقة في تعابيره العامة، وخاصة عندما وضع فارقاً بين الغازي والتوجهات الإسلامية

Witteck, The Rise, 34.

(1)

Ibid., 42.

(2)

الكلاسيكية. وفي مقالة قرأها الكثيرون، استخدم ميكانيكياً نظريته التي تفترض وجود تناقض بين هذين الاتجاهين كمفتاح لفهم التطورات السياسية العثمانية من بايزيد الأول إلى محمد الثاني⁽¹⁾. مثل هذه الصيغ وانعدام الاهتمام العام بتفاصيل روايته، أدى إلى تحوّل انحداري لفرضية الغزو برمتها مما جعلها تعاني مع مرور الوقت مما تتعرض له معظم الفرضيات. لقد أصبحت كاريكاتوراً بحد ذاتها، لما يراه بعض المتدينين المتعصبين، على الرغم من أنها كانت تنعم باعتراف واسع وإعادة صياغة مستمرة⁽²⁾.

إن الإجماع النسبي حول نظرية الغزو الذي ساد قرابة نصف القرن، لم يتوقف خلالها بعض الاختصاصيين عن بحثهم الدائب لإيجاد تفسيرات بديلة أو مكملّة، كما أظهرت سابقاً، ولكن لم يكن هناك من مجادلات حقيقية أنتجت أبحاثاً أو أفكاراً جديدة (باستثناء موضوع سلالة القايي التي شغلت كوبرولو وبعض البحاثة الأتراك الشباب لفترة من الوقت)⁽³⁾. ولكن إحساساً كامناً بعدم الاطمئنان لهذا الإجماع حول صيغة فتيك، ورغبة ملحّة بإعادة إحياء

(1) Paul Wittek, «De la défaite d'Ankara à la prise de Constantinople», Revue des Études Islamiques 12 (1938): I-34.

(2) راجع كمال: Michael W. Doyle, Empires (Ithaca and London, 1986). «رجال القبائل الأتراك الأناضوليين هؤلاء، كانوا مدفعين بروح عسكرية بارزة (التعصب للغزو)، شيء إسلامي يوازي وجهة نظر تقول إن الغزو - معتقد إسلامي عسكري يرفض أي تعايش مع المشركين». (362).

(3) وأنا بالتأكيد لا أريد أن ألمح إلى أنه لم يكن هناك إسهامات تتعلق بدراسة هذه الفترة. فبالإضافة إلى الأعمال المختلفة عن أواخر التاريخ البيزنطي، والتي لا يمكننا إعطاء ملخص عنها هنا، أنتجت حديثاً بعض الأبحاث الجادة عن كل إمارة بذاتها، مثل الدراسات من قبل I.H. Uzunçarsili, H. Akin, Y. Yücel, N. Varlik, and Ç. Uluçay and B. Flemming's ودراسة حميديلي Hamidili وتيكية Teke. والدراسات المؤثرة التي لها قيمة كبيرة في إلقاء الضوء ليس فقط على نشاطات الإمارات الأخرى وإنما أيضاً على العثمانيين الأوائل، هي تلك التي أنتجها أ. زكاريادو Zachariadou، الذي جمع المصادر الإسلامية والبيزنطية واللاتينية للتوصل إلى اكتشافات هامة. ومن أجل الأبحاث والنقاش حول القايي راجع مقدمة كوبرولو لنسخة كتابه بالتركية الصفحات (xxv-xxvi) في الترجمة الإنكليزية.

الاهتمام في تنقيح مسألة ظهور الدولة العثمانية، كانا ينموان دائماً، وقد برزا إلى السطح في الثمانينات في منشورات عديدة مؤثرة لباحثين عديدين تميزوا بالاستقلالية التامة عن بعضهم البعض⁽¹⁾.

الدافع الأول لتركيز النقاد على بعض أعمال العثمانيين الأوائل، هو أن هذه الأعمال تعتبر اليوم مناقضة لروح الحرب المقدسة؛ والاستنتاج تبعاً بأن روحية الغزو تلك لا يمكن لها أن تكون الدافع الأساسي للعثمانيين. وبتعبير آخر، إن منتقدي فرضية الغزو يرون أن ما كان يوماً دوافع سياسية أو مادية قد زُخرف بمشائيات عالية في المصادر اللاحقة، التي كتبها أيديولوجيون يعملون في خدمة السلالة العثمانية.

ويجب أن يكون واضحاً أن هذه المناقشات اقتصرت غالباً على فيتك؛ فأفكار كوبرولو بالكاد نوقشت، وأفكار غييون وأرنالكس بالكاد ذكرت. وعلى الرغم من بقاءه ضمنياً، فإن موقف النقاد الجدد بالنسبة لعلاقة العثمانيين الأوائل مع بقية ساكني التخوم لم تكن من نواحي كثيرة استمراراً لموقف

(1) Rudi Paul Lindner, *Nomads and Ottomans: G. Káldy-Nagy, «The Holy War (Jihad) in the First Centuries of the Ottoman Empire»*, Harvard Ukrainian Studies 3/4 (1979-80): 467-73; R.C. Jennings, «Some Thoughts on the Gazi Thesis», WZKM 76 (1986): 151-61; Colin Heywood, «Wittek and the Austrian Tradition», *Journal of the Royal Asiatic Society* (1988): 7-25; idem, «Boundless Dreams of the Levant: Paul Wittek, the George-Kreis, and the Writing of Ottoman History», *ibid.* (1989): 30-50; Colin Imber, «Paul Wittek's De la défaite d'Ankara à la prise de Constantinople» *JOS* 5 (1986): 65-81; idem, «The Ottoman Dynastic Myth», *Turcica* 19 (1987): 727; idem, «The Legend of Osman Gazi», *OE*, 67-76. Also see idem, *The Ottoman Empire*, Introduction. A similar attitude to the gaza thesis is displayed in the philological analyses of Sinasi Tekin in his «Türk Dünyasında Gaza ve Gihad Kavramları Üzerinde Düşünceler», in two parts in *Tarih ve Toplum* 19 (1993): 9-13 and 73-80.

وكانت مصادفة سعيدة بأن أرى الدكتور فريدون أمجين Feridun Emecen من جامعة اسطنبول، الذي قام حديثاً بنقد لموقف تكن Tekin، ولموقف بعض مؤلفي الأعمال التي ذكرت هنا، مما أنتج مناقشة قريبة من مناقشتي والتي استخدمت أيضاً نفس الحقائق؛ وأنا مدين له لإطلاعي على كتابه الذي لم ينشر بعد،

Gazaya Dair: XIV. Yüzyıl Kaynakları Arasında Bir Gezinti, «Hakki Dursun Yilidiz' a Armagan (Istanbul, Forthcoming).

غيبون - أرناكس، بينما جاء الفحص الخاص لفرضية الغزو من خلال توضيحات أرناكس.

التراث الأنثروبولوجي حول القبائل شكل مصدراً واضحاً للإلهام عند رودى بول لندرن «Rudi Paul Lindner» الذي قدّم أكثر الانتقادات إتقاناً، تنظيم لفرضية الغزو وانتشارها. وكان الوحيد الذي طور نظريةً بديلة. نقطته الأساسية قامت على أساس ما لاحظته من تناقض بين الطبيعة الضمنية للقبليّة والطبيعة الواضحة لإيديولوجية الغزو. وقد وجد أن القبليّة، كما حُددت في الأنثروبولوجيا المعاصرة، تمثل وبشكل أفضل سلوك العثمانيين الأوائل؛ ولذا فهي مرشحة بشكل أقوى لأن تكون العامل الأهم وراء قيام الدولة العثمانية. وهذا ما جعله يأخذ على عاتقه مهمة دحض نظرية الغزو لڤيتك.

لاحظ لندرن وبشدة، أن القبائل في زمن ڤيتك اعتُبرت مجموعاتٍ عصبية يجمعها رابط الدم، ومغلقة مبدئياً في وجه الغرباء عن تلك الرابطة. وقد اعتبر لندرن أنه، من خلال هذا التعريف فقط، كان بإمكان ڤيتك أن يفترض بأنه قد كان للعثمانيين مبدأ آخر للتنظيم غير العصبية القبليّة، لأنه كان من غير الممكن لهم تشكيل سلالة ثابتة. الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة، من ناحية أخرى، برهنت أن القبيلة هي «كائن سياسي تُحدد عضويته بالمصالح المشتركة (وفي أوراسيا العصور الوسطى، بالخضوع للزعيم)»⁽¹⁾. أما اليوم فينظر إلى القبائل على أنها جماعات متداخلة ومن الممكن أن يسعى أعضاؤها إلى صنع سلالة مشتركة، بعد تكوين القبيلة. ولذا، يؤكد لندرن، أن التناقضات التي اكتشفها ڤيتك في السلالات المختلفة التي أنتجها الكتاب العثمانيين في القرن الخامس عشر لا تدحض الجذور القبليّة للدولة العثمانية، كما اعتقد ڤيتك. بل على العكس، هذه التناقضات تثبت بأن الكتاب العثمانيين المتأخرين

(1) Lindner, Nomads and Ottomans, 2. For further elaboration of this point, see also his «What was a - Nomadic Tribe?» Comparative Studies in Society and History, 1982, 689-711.

ومن أجل نقد مفهوم لندرن للقبليّة راجع: Richard Tapper, «Anthropologists, Historians, and Tribespeople on Tribe and State Formation in the Middle East, TSF, 48-73.

كانوا يحاولون فرض رابطة عصبية خيالية على مؤسسي دولتهم، الذين كانوا ينتمون أساساً لمجموعات مختلفة من الأتراك والبيزنطيين الخاضعين جميعاً لقيادة عثمان بسبب طبيعة التداخل القبلية. ويذهب لندرن إلى أبعد من ذلك في تأكيده، على أنه إذا كانت القبليّة المتداخلة في الواقع هي العامل المسيطر في قيام الدولة العثمانية، فنظرية الغزو إذاً يجب أن ترفض لأن الغزو «كأيديولوجية مانعة (مقصورة على جماعة معينة) ومعادية» كانت ستمنع البيزنطيين من الانضمام إلى الأتراك لتكوين قبيلة. و«إذا كان شعار الحرب المقدسة قد لعب دوراً هاماً في منطقة التخوم، فهذه البؤرة لن تتضمن إذن وبوضوح بيزنطيين، لأنهم سيكونون العدو المكروه للمؤمنين»⁽¹⁾.

ويرى لندرن أن حقائق فيتك حول نظرية الغزو تقتصر على نقش بورصه سنة 1337 وتاريخ الأحمدى. ومثل أرناكس، فإن لندرن يشعر بأن كلاً من هذين المصدرين يمكن أن يُفسّر كانعكاس لايدولوجية متأخرة للدولة العثمانية المستقرة بدلاً من الروحية الحقيقية للعثمانيين الأوائل. وهو يقترح تحاشي مثل هذه «الأقوال الأيديولوجية المتأخرة»، ويبنّي مناقشته على أفعال العثمانيين الأوائل، الذين لو كانوا حقاً محاربين مدفوعين للعمل بأيديولوجية الغزو، لما كان بإمكانهم، كما يرى لندرن:

- 1 - تجنيد بيزنطيين في صفوفهم.
- 2 - محاربة قوى إسلامية أخرى.
- 3 - عدم بذل الضغوط لاضطهاد المسيحيين أو عدم حملهم على تغيير ديانتهم.
- 4 - إظهار الاعتدال و«الرغبة في التعايش والتكيف المتبادل» أو
- 5 - السماح بحرية الهرطقة والمعتقدات ما قبل الإسلامية.

ثم يذهب لندرن إلى أبعد من ذلك فيرى أنّ المؤرخين البيزنطيين المعاصرين للعثمانيين الكبار مثل باخيميرس «Pachymeres» و«Gregoras»، و«Cantacuzenes» كان ينبغي أن يلاحظوا هذه

الحيوية الدينية كعامل في الزحف العثماني لو كان العثمانيون فعلاً مدفوعين بمثل هذه الحيوية. ينينغز «Jenings» يستحضر هذه النقطة أيضاً من المصادر البيزنطية، ولكن بالنسبة إليه كان الفشل الأكثر وضوحاً لفرضية الغزاة يتمثل في عدم تجانسها مع سلوك العثمانيين الأوائل نحو رعيتهم وجيرانهم المسيحيين. ومثله أيضاً كالدي - ناجي «Kaldy-Nagy» الذي وجد تعارضاً بين روحية الحرب المقدسة وما لاحظته من ارتباط واهن للعثمانيين الأوائل بعقيدتهم الإسلامية. كما يظهر وبوضوح في استمرارية التصرفات الما قبل إسلامية؛ كاستخدام الأسماء التركية، وحروبهم مع المسلمين الآخرين، وانعدام الحماس لسياسة الدعوة لاعتناق الإسلام. وليس من المهم التذكير بالمصادر التي تنعت عثمان وذريته بالغزاة، لأن ينينغز وكالدي - ناجي كلاهما، يشعرا أننا نواجه زخرفة أيديولوجية متأخرة هنا. ويضيف ينينغز فكرةً جديدةً، وهي أن «نقش 1337» كان في الحقيقة قد أنتج في مرحلة متأخرة كثيراً، خلال الإصلاح، عندما أعيد تأهيل البناء الأساسي العائد لسنة 1337 بشكل جديد تضمن ذكر أورخان ووالده كغزاة.

وعلى الرغم من أن إعادة فتح النقاش حول نظرية تمتعت بالسيادة حوالي نصف قرن من الزمان هو دائماً من الأمور المرحب بها، إلا أن وجهة النقاش هذه - ضد فرضية الغزو - احتوت العديد من المغالطات. والأهم من ذلك أنها بُنيت على ثوابت، كانت أكثر تشدداً حتى من أقاويل المستشرقين الأوائل، وجعلت ناقدتي فتيك يفترضون وجود «إسلام حقيقي» تماثل مقاييسه تماماً مع «الغزاة الفعليين». وكان علينا من وجهة النظر هذه، أن نتوقع الغزاة مسلمين محافظين، مدفوعين بتعصب ديني، يحاربون المشركين دونما ملل، ودونما كلل يحولونهم عن ديانتهم؛ وتبعاً لذلك قد يبدو طبيعياً كل ما يلصقونه من صفات الغرابة على تقاليد فتيك الفيلولوجية ومثاليته الفلسفية. إن هؤلاء الكتاب وقد انحازوا إلى مفاهيم المستشرقين حول الإسلام، والتي تمجد كل ما هو محافظ على أنه إسلامي حقيقي، باتوا يشكون بأي شيء يختلف عنه؛ بل هم في الحقيقة، يذهبون إلى أبعد مما ذهب إليه المستشرقون الأوائل؛ فهم لا يفترضون فقط وجود شيء مثل «روحية الغزو

الحقيقية» التي يمكن تعريفها بغض النظر عن ارتباطها بمحيط تاريخي محدد، وإنما يُخرجون أيضاً، كل من لا يرتبط بسلوك محافظ، من الأمة الإسلامية. لقد اعترف فيتك وكوبرولو على الأقل بوجود فئة متوسطة من المسلمين غير الملتزمين، وعزا إليها ما افترض أنه سلوك غير محافظ للقبائل الإسلامية - التركية وللمحاربين على تخوم الأناضول في العصر الوسيط. أما منتقدو فرضية الغزو فهم مستعدون، من الناحية المقابلة، للعب أدوار تحقيق، ولإصدار أحكام وتقييمات أخلاقية على العثمانيين الأوائل لأنهم لم يكونوا مسلمين بكل معنى الكلمة⁽¹⁾.

بعد ذكر مساهمة القوات المسيحية للبحرية البلقانية في الحملات العثمانية، حتى ضد المسلمين من الخصوم، سجّل ينيغز إن «استخدام الجنود المسيحيين جنباً إلى جنب مع المسلمين في الحملات، مخالفٌ لمقاييس أي شخص تقريباً عن الحرب المقدسة، أما قيادة جنود مسيحيين ضد جنود مسلمين فهو أمر مشجوب». ومجدداً، «من الصعب أن نتصور كيف يمكن لأي مسلم ساهم بهذه العمليات أن يُعتبر غازياً من قبل المسلمين الذين يمتلكون معرفة عميقة بدينهم الخاص»⁽²⁾. بينما كل المؤلفين العثمانيين المتأخرين، والذين كانوا واعين، إلى حد ما، لهذه الطرق الخاصة التي عمل من خلالها العثمانيون الأوائل، والذين يُعتبرون في الحقيقة المصادر لمعظم المعلومات التي استخدمها ينيغز، قد اعتبروا بناء دولتهم غزاة. فهل كان هؤلاء جميعاً يفتقدون إلى «معرفة عميقة بدينهم الخاص»؟

من بين «الأسباب لافتراض أن أرطغرل وأبناءه كانوا مرتبطين بشكل

(1) الميل نحو إصدار حكم تعسفي على المسلمين الذي أظهره بعض التوجهات التي لا تعتبر شرعية، يمكن ملاحظة ذلك أيضاً، كما أوضح محسن مهدي، عند مؤرخي الفكر المستعدين لوضع فيلسوف إسلامي من العصور الوسطى مثل ابن سينا خارج الجماعة المؤمنة. راجع مقاله: «Orientalism and the Study of Islamic Philosophy», Journal of Islamic Studies I (1990): 73-98.

Jennings, «Some Thoughts», 155, 153.

ضعيف بالإسلام» يرجع كالدي - ناجي إلى حقيقة أن كل أعضاء عائلة أرطغرل وعثمان والمحاربين المرتبطين بهم وبأجيالهم يملكون أسماء تركية⁽¹⁾. إن عادة التسمية والتغير في هذا الإطار هما بالتأكيد مرتبطان بفهم التوجه الثقافي للشعوب المعنية، والانقلاب الواضح في التفضيل، من الأسماء التركية إلى الأسماء الإسلامية - العربية يحتاج إلى الملاحظة والفهم، ولكنه ليس بالضرورة مقياساً لعمق «الالتزام الديني» للشخص كما يرى كالدي - ناجي. هناك أسباب عديدة مثلاً لإبقاء الأحكام الممالك في مصر على أسمائهم التركية، وعدم الالتزام الديني ليس بالتأكيد واحداً منها⁽²⁾.

من بين جميع المواقف المتشددة، كان موقف لندرن هو الأكثر جذرية؛ كان على استعداد لأن يتصرف كواحد من أعضاء محاكم التفتيش، تقريباً، لحرمان العثمانيين الأوائل من انتمائهم الديني. وإذا تمعنّا في بعض الأمثلة التي يعتبرها من معتقدات ومواقف ما قبل الإسلام عند العثمانيين الأوائل، نراه يخلص إلى أنهم قد يكونون، مثلاً، «مجاهدين في سبيل الشامانية (دين بدائي من أديان شمالي آسيا وأوروبا) وليس في سبيل الإسلام». وفي مناسبة أخرى، وبعد تعداد بعض المعتقدات أو الممارسات البدعية للعثمانيين الأوائل، ولكي يدحض مرة أخرى وجود «حماسة إسلامية أحادية الجانب»، يقرر أن «يتترك جانباً افتراضه الخطير أن عثمان ورفاقه كانوا مجاهدين في قضية أخرى عادلة، وهي قضية الشامانية»⁽³⁾. إن هؤلاء العثمانيين الأوائل، إذا كانوا مجاهدين من أجل شيء، فيجب أن يسمح لهم بأن يكونوا مجاهدين لما

(1) Holy War», 470. راجع أيضاً صفحة 469 من أجل نفس الأفكار حول القادة الأتراك العسكريين مثل أرطوك (توفي 1091).

(2) يبدو أنه أكثر ملاءمة أن نقرأ التغيرات في طرق التسمية كمسألة هوية بدلاً من كونها مسألة إخلاص ديني، تعكس عدم الاهتمام بالتقاليد التركية في التعريف - الذاتي للعثمانيين الأوائل كما أبرزها:

M. Kunt, «Siyasal Tarih, 1300-1600», in Türkiye Tarihi, ed. S. Aksin (Istanbul, 1987-88), 2:36-7.

R. P. Lindner, «Stimulus and Justification in Early Ottoman History», Greek Orthodox (3) Theological Review 27 (1982): 216.

افتترضوا أنه الإسلام. بعض معتقداتهم كادت أن تكون نقيضاً لجوهر الإسلام المفترض، إلا أنه ليس بإمكاننا فعل أي شيء حول حقيقة أن شعوب محاربي التخوم، ومنهم العثمانيون الأوائل، اختاروا الاحتفاظ ببعض معتقداتهم «الشامانية» أو بالأحرى، إعادة تفسيرها من خلال فهم توفيقى مع الإسلام. ويُلاحظ تلاقي مماثل بين «البدع» وروحية الغزاة في ظروف حدودية عديدة، كما يلاحظ، أنها وجدت كذلك إبان ظهور الصفويين كقوة سياسية أيضاً⁽¹⁾. هذه هي الحقيقة التاريخية لمحاربي التخوم، والتي يمكن القول فيها، ولا يمكن نكران ذلك، أنها كانت تناقض قاعدة التعريف غير التاريخي للغزو، الذي وضع على أساس ما كان ينبغي أن يكون.

إن جايكلي بابا «Geyikli Baba»، مثلاً، درويش من عثمانيي بشينية الأوائل، ويمكن أن يظهر بوصفه ذا سلوكٍ غير إسلامي، لباحث مهووس بالمحافظة، ولكن لا يوجد أدنى شك بأن جايكلي بابا اعتبر نفسه مسلماً، واعترف به الكثيرون على أنه كذلك. طاشكيري زاده عالم سني بارز من القرن السادس عشر، كان أكثر قدرةً على التمييز بين البدعة والدين القويم من أسلافه عثمانيي القرن الرابع عشر، وأكثر تشدداً في تطبيق المقاييس المناسبة، إلا أنه لم يتبادر إلى ذهنه أي شك بإسلام جايكلي بابا عندما سجل وبتقدير كبير «كرامات»⁽²⁾ هذا الأخير. ومن المعروف أن العديد من الأتراك العلويين والسُنة ما يزالون يؤمنون بأساطير مماثلة ويخبرونها لأطفالهم كجزء من تربيتهم الدينية. ومن الطبيعي، أن هذا لا يجعل من هؤلاء «مربين شامانيين».

في الحقيقة، هناك مشكلة جدية في هذا الاستخدام «للشامانية». أولاً، في هذا الجمع لكل ما يبدو أنه «بقي» من المعتقدات التركية السابقة للإسلام تحت تصنيف «الشامانية»، نتبين لندرن، وبساطة، تابعاً لسابقة كوبرولو وغيره

Michel Mazzaoui, the Origins of the Safavids: Si'ism, Sufism, and the Gulat (Wiesbaden, (1) 1972).

Al-Saka'ik al-nu'maniyya, trans. Mecdi Efendi, as Hada'iku's-saka'ik, ed. A. Özcan (2) (Istanbul, 1989), 31-33.

من علماء التركية الأوائل. أما الآن، وبعدما تقدمت دراسة مقارنة الأديان، فقد تم التوصل إلى فهم أدق للشامانية، وبخاصة على ضوء اهتمام لندرن الخاص باستبعاد التحولات الحضرية في التعاطي مع البدو، وسيكون مناسباً أن نأخذ معتقدات وتصرفات العثمانيين الأوائل البدعية على محمل الجد. فما علاقة «طقوس التضحية بالإنسان»، هذا إذا افترضنا أن بعض العثمانيين قد مارسها بالفعل، كما يرى فريونيس ولندرن؛ أو طقوس قتل الأبناء من قبل الشخصيات الدينية الشامانية؟⁽¹⁾ ثانياً، وحتى لو كانت أعمال العثمانيين الأوائل تحتوي على بعض آثار الشامانية، فإن هذا لا يجعلهم شامانيين، وبالتأكيد لم يكونوا محاربين من أجل الشامانية. ملاحظات لندرن حول «الاحتمال المثير» «لشامانية» العثمانيين الأوائل تظهر وكأنها إعادة تشكيل لفرضية غيبون القائلة بأن عثمان لم يكن مسلماً حتى مرحلة متأخرة من حياته. ومن الطبيعي أن هذا الرأي يتطلب أدلة أكثر من مجرد الإشارة إلى بضعة أمثلة لتصرفات متخلفة وقيل إسلامية.

بالإضافة إلى ذلك، هناك تناقض واضح في خط المناقشات المتبعة من قبل منتقدي فيتك؛ فإذا كان المؤرخون المتأخرون قد صُنفوا على أنهم أيديولوجيون يحاولون أن يبرثوا مؤسسي الدولة من الوثنية من وجهة نظر بشتية، فكيف يمكن أن نفسر تضمين رواياتهم لهذه الأساطير «غير الإسلامية»؟

عاشق باشا زاده 1400 - 1490 وربما كان أشهر هؤلاء المؤرخين، يكاد يهمل تسجيل هذه الأعمال، ولكنه يطمئنا شخصياً إلى صحتها. فلو كانت أعمال العثمانيين الأوائل، وبسبب خصائصها «الوثنية»، متناقضة مع مفهوم عاشق باشا للإسلام، فلماذا لا يحاول كتمانها أو على الأقل الاكتفاء بتسجيلها

(1) حول التضحية البشرية، راجع، فريونيس Vryonis، «Evidence of Human Sacrifice among Early Ottoman Turks», Journal of Asian History 5 (1971): 140-46.

ومن أجل تقييم لاستخدام الشامانية في قضيتنا، راجع:

I. Kafesoglu, Eski Türk Dini (Ankara, 1980) and the unpublished M.A. thesis of A. Karamustafa (Mc-Gill University, 1981).

ومن أجل مسح انتروبولوجي ناقد لقراءات السلوك الديني غير المستقيم كآثار متبقية من

C. Stewart, Demons and the Devil (Princeton, 1991), 5-12.

الماضي، راجع:

كتقاليد؟ ما رأيانه كان على العكس من ذلك، فهو يركّز على رأيه الشخصي بهذه الأساطير. فهل كان هو أيضاً «شامانياً»، وفي استانبول أواخر القرن الخامس عشر حيث كتب؟!

لا أحاول هنا أن أنقذ سمعة عثمان وعائلته، أو إثبات أنهم كانوا «مسلمين صالحين»، أو حتى تأكيد أنه قد اعترف بهم كمسلمين منذ بداية عملهم السياسي. ربما كان بإمكان البعض بناء مناقشة حول تحوّل عثمان الديني في نهاية عمله، إلا أن هذه المناقشة تحتاج إلى أن تبني بدلاً من الاكتفاء بالإشارة إليها. ولا أحاول أيضاً تجنب حقيقة أن بعض، أو ربما أكثر، أعمال العثمانيين الأوائل كانت غير محافظة، إلا أن هذا لا يجب أن يكون سبباً للاعتقاد بأن ارتباطهم بالإسلام كان غير جدّي أو غير صادق بما يكفي للانخراط في روحية الغزو. فما دخل روحية الغزو «بالإسلام الصحيح» ولماذا نتوقع من المجاهد في سبيل الدين أن يتمسك به؟

ومن هذا المنطلق، يجب أن نرى بأن ملاحظات لندرن والآخرين حول مواقف العثمانيين الأوائل من ديانتهم أو جيرانهم ليست مبنية على اكتشاف حقائق جديدة. وربما كان كل كتاب تاريخ الحقبة العثمانية الأولى، ومنهم فيتك، واعين للمواقف التوفيقية وللممارسات غير المتشددة بين العثمانيين الأوائل وكذلك لصراعاتهم مع الأمراء المسلمين الآخرين. وباستثناء أرنأكس فإنهم لم يروا أن هذه الحقائق تتناقض مع روحية الغزاة. وكما رأينا، فإن أرنأكس ومنذ بداية عام 1947 قد بين نقطتي الاعتراض الأساسيتين ضد فيتك: إن نقش بروشه والتاريخ الأحمدى يمكن تجنبهما كأيديولوجية متأخرة، وأنه كان هناك تعارض بين روحية الغزو والمواقف غير العدائية للعثمانيين الأوائل نحو جيرانهم البيزنطيين ونحو الديانات ما قبل الإسلامية⁽¹⁾.

(1) وفي مناقشتهم من أجل المصدر القبلي للدولة العثمانية المأخوذ من كوبرولو، والمناقض لفرضية الغزو عند فيتك، شعر بعض البحاثة الأتراك أيضاً بأن الغزاة يجب أن يكونوا مسلمين محافظين: Faruk Demirtas, «Osmanli Devrinde Anadolu'da Kayilar», Belleten 12 (1948): «لو كان المجتمع العثماني الأول مكوناً من الغزاة، كما يدعي البحاثة الأوروبيون، لاتخذ هؤلاء لأنفسهم أسماء إسلامية ملتزمة بدلاً من الأسماء القومية التي حملها معظمهم» (602).

لماذا علينا أن نتوقع أنّ أعمال الغزاة لا بد أن تكون موجّهة بصرامة دينية، حماسة، ورفع شعار «الإسلام الصرف؟» إن وصف فيتك لبيئة الغزاة وروحيتهم كان مبنياً على ما رأى من حقائق تاريخية وليس على تعريف مسبق للغزو. وبالتحديد، لم يكن تعريفه شرعياً وإنما كان تاريخياً، آخذاً بعين الاعتبار شروحات المؤلفين المسلمين في العصور الوسطى، الذين سبقوا بكثير، في كتاباتهم، المؤرخين العثمانيين، لنموذج اجتماعي معين أطلق عليه اسم الغزاة، وارتبط بمناطق الحدود مع العالم الإسلامي.

إن الوصف الأكثر شيوعاً للغزاة كنموذج اجتماعي استمد في الأساس من برتولد «W. Barthold» عالم التركيات الروسي، الذي تابع كلّ من كوبرولو وفيتك أعماله عن كُتب، وخصوصاً من هذه الزاوية⁽¹⁾. أما بالنسبة لكتاب برتولد «تركستان»، (فسرعان ما اعتبر الدراسة المعتمدة لتاريخ آسيا الوسطى وشرقي إيران بين القرنين السابع والثالث عشر). ومنذ التقارير الأولى في المصادر الإسلامية عن غزاة خراسان في القرنين العاشر والحادي عشر، رأينا أنفسنا في مواجهة «عناصر لا تهدأ» وهي «تقدم خدماتها حيثما كانت هناك حرب مقدسة تدور وحيثما كانت هناك غنيمة متوقعة»⁽²⁾. يذكّرنا برتولد بحادثة «انخرط فيها ثلاثمائة رجل في عمليات سطو وسرقة» وانتهت بالقبض عليهم وإعدامهم من قبل حاكم سمرقند في القرن الحادي عشر. ثم يضيف قائلاً: إن هذه الإجراءات قد «اتخذت ضد طبقة من الشعب انبثق عنها في مرحلة لاحقة ما يسمى (بالمطوعين)»⁽³⁾.

وظهور الغزاة واحد من المظاهر الاجتماعية التي ما تزال غامضة لمنظمات ذكرية شبه مشتركة في التاريخ الإسلامي في عصوره الوسطى. لقد مثل الغزاة إمكانية مشاكل مستقبلية، من وجهة نظر الدول المستقرة، التي

(1) W. Barthold, Turkestan down to the Mongol Invasion, 4th ed. (London, 1977).

النسخة الأساسية بالروسية ظهرت سنة 1900 والنسخة الإنكليزية سنة 1928.

(2) Ibid., 215.

(3) Ibid., 312.

حاولت وبنجاحات جزئية فقط أن توجه قدرات هذه القوى الاجتماعية نحو أهداف مغايرة للنظام السائد. غزاة «Gaziyzn» كان الاسم الجامع الذي أُعطى لهذه التنظيمات (على الرغم من أن مستوى التضامن أو التنظيم فيها لم يكن معروفاً تماماً). ومناطق الحدود كانت ميدانهم الرئيسي، وذلك لسبب واضح إذ هناك كان بإمكانهم أن يقوموا بغزواتهم ضد دار الحرب⁽¹⁾. من ناحية السلطات المركزية، كانت هذه إحدى الطرق الناجعة لإبقاء العناصر غير المرغوب فيها بعيداً عن المجرى العادي للحياة المستقرة، بينما كان من الطبيعي من وجهة النظر العامة، المبنية على قاعدة دينية في ذلك الوقت، أن هؤلاء الغزاة كانوا جاهزين دائماً لإظهار أنفسهم كمحاربين من أجل قضية دينية. برتولد، كما العديد من المستشرقين الذين، اعتمدوا على كتاباته، يرون أن الغزاة لم يكونوا بالضرورة نتيجةً لدافع لا يقاوم للحرب من أجل الدين، وإنما هم في الغالب، عناصر غير مستقرة اجتماعياً، وجدت لنفسها ملاذاً، شرعيةً، وإمكانيةً تتغير من خلال نشاطات عسكرية في مناطق الحدود، وهذه النشاطات قُدّست وجُعِلت ذات معنى داخل إطار قضية أسمى.

ولكن وحتى في هذه الحال، هذه الشرعية الدينية لم تكن بالضرورة مناسبة لمثاليات الدول المركزية الإسلامية. الأفكار غير الرسمية، البدع، وحتى الهرطقة، وجدت أرضاً أكثر خصوبة في مناطق الحدود غير المستقرة، حيث من الصعب على الحكومات المركزية فرض سلطتها ورؤيتها للإسلام. زد على ذلك، ما أوضحه فيتك مراراً، من أن «وضعاً ثقافياً - اجتماعياً مماثلاً قد سيطر على الجانب الآخر من الحدود». وفي حال الأناضول، عاش الغزاة والأكريتاي «Akritai» ولقرون عديدة متقاربين فكرياً وجغرافياً مع بعضهم البعض، أكثر من تقاربهم مع السلطات المركزية.

لمناقشة ما يتعارض وهذا التعريف، قد نحتاج إلى إعادة تفسير للمصادر

(1) في النصف الأول من هذا القرن، كان المستشرقون أكثر تأكيداً على أن أخويات العنوة قد وجدت في إسلام القرون الوسطى، وأن الغزاة كانوا جزءاً من هذه الظاهرة برتولد مثلاً، يتحدث عن «نقابة المحاربين من أجل المعتقد». (Ibid., 214-15).

التي تصف أعمال الغزاة. إن منتقدي فرضية الغزو يفترضون، أن التعريفات المعجمية الحديثة للغزو تقدم لنا مقياساً كافياً لتحديد من كان غازياً ومن لم يكن: «الحماسة للحرب المقدسة» هي تعريفٌ كافٍ بالنسبة لهم في وصفهم لروحية ظاهرة اجتماعية ظهرت في منطقة جغرافية واسعة تمتد من خراسان إلى البلقان، وفي مدة زمنية طويلة تمتد من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر على الأقل. وهذا الموقف ليس بأقل تاريخية من تعريف البرجوازية بـ «ساكني المدن» ومن ثم تحديد موقع كل شخص منها، وببساطة، بتتبع عنوانه البريدي.

وباختصار نقول إن الغزاة، وكما عرفهم منتقدو فرضية الغزو أنفسهم، ليسوا بكيانات تاريخية، وإنما هم رجال بسيطون يجاهدون بلا كلل من أجل مثالياتهم السامية. أو ليس من المستغرب أن لا ينظر إلى هؤلاء الرجال كعامل فعلي في أوائل التاريخ العثماني وإنما كابتداع أيديولوجي من المؤرخين العثمانيين المتأخرين؟ إن خصائص الفئات الاجتماعية يمكن أن تستخلص ليس من التعاريف المعجمية لتسمياتهم، وإنما من تفسير المصادر التي تصنف أعمالهم، وعلاقاتهم مع فئات اجتماعية أخرى، وتصنف كذلك خصائصهم الثقافية كما تبرز في بيئتهم التاريخية الخاصة. علينا أن نتوجه إلى هذه المصادر إذاً، لنرى كيف تصوّر الغزاة ومناصروهم مبدأ الغزو والمفاهيم المتعلقة به.

ومن الغريب أن أحداً، من بين الذين يقبلون أو يرفضون دور روحية الغزو في بناء الامبراطورية العثمانية، لم يحاول التحقق من طبيعة هذه الروحية كظاهرة تاريخية وعلى قاعدة تحليل دقيق للمصادر التي تروي أعمال الغزاة. مغالطة أساسية أخرى عند منتقدي فرضية الغزو تحديداً، تكمن في الخلط بين «القوة الدافعة» و«السبب الكافي». ومن الواضح بأن هذين المبدئين يشكلان نوعين مختلفين من المبادئ التفسيرية، وإلا كان علينا أن نتوقع تحول كل إمارات الغزاة إلى إمبراطوريات عالمية. «فإذا كانت روحية الغزو قوية جداً عند كل من الدنشمنديين والعثمانيين، فلماذا كان هذا الحماس للحرب المقدسة

عاملاً لنجاح العثمانيين، بينما لم يمكن الدنشمنديين حتى من الانتصار على أعدائهم، الأمر الذي أدى إلى اختفائهم عن مسرح الأحداث في الأناضول بعد أقل من قرن». ويسأل لندرن «إذا كانت روحية الغزو هي القوة الدافعة، كما افترضنا، فكيف يمكن لها أن تؤدي إلى مثل هذه النتائج المتعارضة؟»⁽¹⁾ هذا السؤال قد يكون مقبولاً فقط في حال كانت روحية الغزو، أو أية قوة دافعة أخرى مقترحة، قد قُدمت كسبب وافي لإنشاء إمبراطورية عالمية. إلا أن الباحثين العثمانيين، بمن فيهم فيتك، كانوا دائماً، في بحثهم عن العوامل التي صيرت إمارة صغيرة قوةً عظيمة، مستعدين لإظهار الظروف الخاصة التي جعلت ميزان القوى يميل لصالح عثمان، وذلك بإظهارهم الأفضلية الخاصة للمكان الجغرافي مركز قوته الأساسي.

وتبرز الحاجة هنا إلى توضيح العلاقة بين «السببية» والتاريخ الثقافي. فالتاريخ الثقافي أو الفكري لا يستتبع بالضرورة افتراضات سببية مطلقة. فلتصوير روحية أو أيديولوجية من خلال مصادر تتعلق ببيئة أو بطبقة معينة، يجب علينا أن نحدد أولاً طبيعة هذه الطبقة، مصالحها، حاجاتها، وعلاقاتها بفئات اجتماعية أخرى. وهذا لا يجعلنا نستنتج بالضرورة أن أفعال أعضاء هذه الطبقة كانت تتغذى من «أفكارهم»، وإنما يمكن فقط فهمهم بطريقة أفضل من خلال فحص أفكارهم. وبهذه المقاربة، فإن التاريخ الثقافي هو طريق معرفي فقط وليس مؤشراً سببياً، والفشل في التقدير الصحيح للتقاليد الثقافية لمجتمع التخوم ينبغ في أساسه من اتجاه ميكانيكي للتاريخ الثقافي، أو من خلط بين

(1) Lindner, «Stimulus», 219. ومن الطبيعي، أن نفس السؤال كان يمكن أن يطرح بالنسبة للقبلية. فلو كانت هي القوة المحركة، كما يقترح لندرن، فهل كان العثمانيون هم المجموعة الوحيدة التي تبني القبلية في الأناضول؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا يتطلب تفسيراً تاريخياً لطريقة عثمان الفريدة. وإلا، فلماذا لم ينجح الآخرون؟ هذه النجاحات الكبرى التي تمتع بها العثمانيون تعود إلى عثمان كقائد، ولكن نفس النقطة يمكن طرحها ضمن إطار فرضية الغزو. وإذا كانت هناك من الجهة الأخرى، أسباباً للقبلية لتعمل في بشينة بشكل أفضل من بقية المناطق، فنفس الشيء يمكن قوله بالنسبة للغزو.

خط أبستمولوجي وآخر أنطولوجي .

وبالتأكيد، كانت فرضية الغزو أكثر مرونة، مما تصورها منتقدها. وكان من الممكن دمجها، كما فعل إينالجيک في مقالته المذكورة سابقاً، في نسيج من العوامل يتضمن حتى المادية منها، وربما كان فيتك نفسه يفكر بالقيام بذلك. بعد إبراز هجرات القبائل التركمانية إلى غرب الأناضول والتي أدت إلى «إمكانية ديموغرافية عظيمة وأبرزت أيديولوجية الحرب المقدسة»؛ كتب إينالجيک يقول: الاندفاع من جانب هذا المجتمع الحدودي المتفجر... تحقق على مراحل هي التالية: (1) بدأ بالتحرك الموسمي للمجموعات التركمانية البدوية نحو السهول البيزنطية الساحلية، (2) وتكثف بتنظيم مجموعات غازية صغيرة تحت قيادة زعماء الغزاة، ومعظمهم من أصول قبلية، من أجل القيام بغزوات للحصول على الغنائم أو للتوظيف كمرتزقة، (3) واستمر ببروز قادة ناجحين قادرين على أن يجمعوا تحت قيادتهم زعماء محليين للفتح وإقامة الإمارات... (4) ومع تورط هذه الإمارات الغازية، بأهدافها وبتوجهاتها السياسية والاقتصادية الواضحة، في الصراع الإقليمي للسيادة على مناطق بحر إيجه والبلقان؛ الذي لا يزال يذكر زمر الغزاة ولكنه يسميهم «زمر القراصنة - الغزاة»، وبالنسبة لهم، وبسبب «الارتفاع العام لأسعار العبيد... فإن استعباد الجيران «المشركين» كان العمل الأكثر ربحاً إضافةً إلى أنه عمل (ديني)⁽¹⁾. وهذه الرواية تحاول أن تحافظ على توازن، أو بالأصح على ارتباط داخلي، بين العوامل المادية والأيدولوجية حيث إن «أيديولوجية الحرب المقدسة (الجهاد)، مثلها مثل نجاح الغزوات الفعلية، قد عززا الروابط بين زمر [القراصنة - الغزاة] وأنتجا فئة اجتماعية متماسكة تتمحور حول الزعيم»⁽²⁾.

Inalcik, «The Question of the Emergence», 74-75.

(1)

Ibid., 76.

(2)